محمد برادة







امرأة النسيان

رواية

الفنك
كتاب الجيب

محمّد برّادة

امرأَة النِّسيان

رواية

نشر
الفنك

89 ب، شارع أنفا- الدار البيضاء

ردمك: 4 -11 - 415- 9954

الغلاف: خديجة قباج

إهداء

إلى:

خليل غريب

عبد الجبار السحيمي

عبد الحيّ الديوري

.1.

أليس من حقنا أن نفعل شيئًا

لاستدَامَةِ نَجمةٍ آيلةٍ للأُفول؟

م. ب.

أنت متعجل لان تكتب

كما لو كنتَ متخلِّفًا عن إيقاع الحياة

إذا كان الأمر كذلك، استعرض مصادرك

عجِّل، عجِّل بأن تَنْقُلَ للآخرين

نصيبك من العجيب والعصيان والإحسان»

روني شار

صباح من شهر اكتوبر، منذ خمس سنوات. سماء يلفُّها غمام خفيف يحجب شمسًا متكتِّمة ستعلن بقوة عن حرارتها كلما تقدمت عقارب الساعة. مشهد مألوف في خريف الرباط المنبئ، غالبًا، عن جفاف. بقايا الأخبار الإذاعية ما تزال تحوِّم على ذاكرتي النعسانة المتلمِّسة لما يُخرجها من خَدَرها.

ما تنسجه أصداء الأنباء لا يكاد يتغيَّر: يوم الحشر أوْ يكاد، في مناطق من آسيا وإفريقيا وأوروبا الشرقية، وانتفاضات متجدّدة في فلسطين، واجتماعات لا تنقطع، وتصريحات مُجلَّلة بالتَّعمية وإخفاء الأغراض، وأنباء مقتضبة عن كشوفات علمية ستغيّر وَجْه البسيطة ومصائر الناس في مجالات التكنولوجيا وهندسة الجينات والإعلاميات وغَزْو الفضاء...

وقد أُمضي النهار إلى حدود السادسة وأنا مشدود، كالأبْله، إلى ما يتوارد عليَّ من أخبار، أو إلى ما قرأته في صحف وطنية تُجيد الوفاء لثوابت خطابها وشعاراتها. لذلك كثيرًا ما أُجيب مَنْ يفاجئني بفكرة جدية، أو اقتراح محفز، أنني لا أكون صاحيًا مستعداً للاستقبال المتفاعل إلاّ بعد الخامسة ظهراً. في بعض الأحيان، تهبُّ كلمات قرأتها أو مشاهد رأيتها بالأمس لتُخرجني من حالة الخَدر المستَسلم لدَفْق الأخبار، ثم سرعان ما تتلاشَى.

هذا الصباح، تذكرتُ فجأةً، ما قرأتُه خلال الليلة الماضية من صفحات أوبرا «سالومي» التي كتبها أوسكار وايلد. تذكرتُ عبارات تتلفّظها سالومي وهي ممسكة برأس يوحنا المعمدان المجنون

الذي رفض الاستجابة لإغراءاتها وهي المفتونة به، فاشترطت على الملك هيرودس أنتيبا ألاّ ترقص أمام مَدْعوي المأدبة إلاّ إذا قدّم لها رأس يوحنا:

«أعرضتَ عنّي يا يوحنا. رفضتَني وقلتَ لي أشياء مشينة. عاملتَني وكأنّني محظية أو عاهرة، أنا سالومي ابنة هيرودس أميرة يهودا. حسناً! أنا ما أزال على قيْد الحياة. لكنك أنت ميِّتٌ ورأسك في حوزتي، أستطيع أن أفعل به ما أشاء. أستطيع أن أرميه إلى الكلاب وأطيار الهواء. وما ستتركه الكلاب منه ستأكله الأطيار... آه! يا يوحنا، لقد كنتَ الرجل الوحيد الذي أحببتُه. كل الرجال الآخرين يُوحون لي بالتقزُّز. لكن أنتَ كنت جميلاً وكان جسدك ساريةَ عاج على قاعدَة منْ فضَّة...».

ذهني سارح مع سالومي بأطيافها المتعدِّدة وهي تنتقل من نغمة التَشَفِّي أمام الرأس المقطوع إلى لَوعَة الأسى ذات القرار الشجي. ما منْ حدود بين الحالتيْن. كل ما حولها تَمتَصُّه شخصيّتُها المكتملة بتَفرُّدها المترذِّل، المتَعشِّق للغواية إلى حدٍّ أن الأشياء تَصطَبِغُ بصوتها المتهدِّل الملتبس. وحين رنَّ الهاتف وسطَ تلك التأملات حسبْتُه، أوّل الأمر، نَبرةً من موسيقى ستراوس المصاحبة للأوبرا. ثم سرعان ما أدركتُ أنه صوتُ هاتفٍ أرضيّ يَنْتَشِلُني من تهويمات سالومي السماوية.

- آلو؟

- هل يمكن أن أكلم الأستاذ الكاتب؟

صوت هادئ، رزين، لامْرأة. يا فتّاح يا عليم. أوّل مرَّة أُخاطَب بلَقَب كاتب

- طَبعاً. أنا مستمع إليك.

بدأت تتحدّث بلغةِ دارجة ثم انتقلتْ، معتذرة، إلى لغةِ فرنسية مُبينة.

في أوّل وهلة، لم أفهم الموضوع؛ ثم أخذتُ، تدريجاً، أستوعب كلامها. فهمتُ أنّها صديقة حميمة لـ: (ف. ب)، إحدى الشخصيات النسائية الواردة في رواية «لعبة النسيان»، وأنَّ ف. ب طلبتْ منها أن تُقنعني بإن أزورها في «مَحبسها» العائلي، لأنها تريد أن تُناقشني في بعض التفاصيل التَي أوردتُها على لسانها... قاطعتُها محاولاً توضيح اللبس:

- لكنني لا أعرف ف. ب شخصياً، ببساطة لأنها ثمرة تخييل، وإذا كان هناك تَشابُه أو تطابق فهو محض صدفة...

استمرتْ مُحدثتي مُلحة بأنها هي نفسها حضرت لقاءً بين الهادي وصديقتها ف. ب في باريس، وأن هناك واقعاً قائماً قبل أن يتدخّل الخيال

- أنا لستُ مسؤولاً عن هذا التشابُه، ولا يتّسع وقتي للدخول في لعبة تصحيح أخطاء شخوصٍ لا أزعم أنها تَنْتسب إلى ما عاشه الناس بالضرورة.

- بهذا التملّص، أنت تختار الموقف السهل أيها الكاتب

المحترم. تدير ظهرك لما كتبتَ مفترضاً أنه لن يُحرك أشجاناً أو ردود فعل . . .

- أؤكد لك ولصديقتك، بأنني، خارج الكلمات، لا أستطيع أن أسعف أحداً.

- هي لا تريد منك إسعافاً.

- والمطلوب؟

- أن تزورها. هي الآن تعيش معزولة بمعزبة توجد بنفس العمارة التي يملكها أبوها بحيّ ڤيرْدانْ بالدار البَيضاء. جميع أفراد عائلتها يعتبرونها مختلة، وصديقَتنا لا تطيق رؤية أحد، مستسلمة لما فرضوه عليها ومنجذبة لما تُسميه منفىً داخلياً. لا أخفيك أنها مريضة وغريبة الأطوار، وأظن أن زيارتك ستخرجها، قليلاً، من وَحْدتها. أنا الذي أهديتها نسخة من «لعبة النسيان» واستدرجتُها لقراءتها.

- لكن يجب أن تتأكّدي من أنني لا أعرفها، مثلما أنني لا أعرفك.

- لنَقُل إن الهادي حكى لك عنها، أو أن مجرد قارئة وجدت ملامحهَا فيما كتبتَ وتُريد أن. . . ولم أستطع التملُّص من تحديد موعد لزيارة ف. ب النازحة من صفحات «لعبة النسيان» إلى حيّ ڤيردان بالدار البيضاء.

عندما أعدتُ السماعة إلى مَوْضعها، لم أكد أبرح تلك المنطقة التي غصتُ فيها وأنا أستعيد كلمات سالومي وحركاتها المتنقلة من الحقد الموتور إلى العشق المعذِّب، المستحيل. هل هو فضاء معزول؟

م أنه مُتواشج مع الفضاء الذي أنسجه كل يوم لأواصل العيش
سط فضاءات أمشاج؟

* * *

تأكدتُ أنني لم أر صديقة ف. ب منْ قبل، عندما سلَّمت عليّ
أنا أنتظرها على ناصية شارع ڤيردان. شرحت لي طريقة التسلّل
ى المعزبة وأوضحت لي أن البنت التي تَسهر على خدمة ف. ب
نواطئة معها وأنني في مَأمَن منْ كُلّ إزعاج. عندما دخلنا، كانت
، . ب جالسة على لحاف مرّتفَع قليلاً عن الأرض. ظلّتْ جالسة
مدّت لي يدها وابتسامةً شاحبة تعلو مُحيّاها. انحنَتْ عليها
ـديقتُها تُقبلها ووشوشت لها بِضْعَ كلمات ثم انسحبت وهي
دّعني بإشارة من أصابعها.

امتدّ الصمت لحظات غير قصيرة فأخذت أنظر إلى جدران
غرفة المكسوّة بمستنسخات للوحات فنانين مشهورين: غوغان،
وني، ماتيس، بيكاسو؛ وفَوق الحيِّز الذي يوجد تَحتَه الفراش
ستنسخ كبير للوحة «صديقتان» لجوستاف كْليمتْ. أطلتُ النظر
، هذه الصورة الأخيرة ووقفتُ مقترباً منها وأنا مندهش لملامح
نشابه بين ف. ب وبين المرأة المرتدية لفستان أحمر فاتح وقد لفَّتْ
عرها في شال يأخذ شكل عمامة مشبوكة في الأعلى بحلْي تَشُوبه
طُ حمراء وَخضراء، وعيناها السوداوان تُعبرانَ عَن أنْشدَاه
ُموم، فيما صديقتُها العارية أو المتدثِّرة بغلالة جد شفّافة تسند
سها إلى كتف صديقتها وتنظر نظرة جانبية وقد ارتسمت بداية

ابتسامة في عيْنيها وملامحها تشي بأنها ظفرتْ بسعادة ما. ورغم الألوان الزاهية التي برع كْليمتْ في تَزويجها مُؤثثّاً خلفية اللوحة وجوانبها، فإن المرأة «المكسوَّة» تكتسح بقيّة العناصر لتشدّنا إلى أبعاد بلا قرار تَرْنو إليها عيناها الحزينتان حُزناً لا يسمَّى...

بعد قليل، سمعتُ ف. ب تقول بصوت هادىء: هل نسيتني؟ ابتسمتُ مُحرجاً وأجبتُ بأننا لم نلتق من قبل. استأنفتْ كأنها لم تسمع ما قلتُه:

«منذ كتبت «العبتك» وأنت تختبئ وراءها. ألَمْ يُحدِّثك الهادي عنِّي؟ ما أخباره؟ منذ رآيتُه آخر مرَّة، منذ سنوات، في المقهى بباريس، لم ألْتقِ به. عشت تجربةً مليئةً بالاهتزازات، من تَدَحْرُجٍ إلى آخر، وانتهى بي المآل إلى ما تَراه: محبوسة، معزولة. أنا في نظر العائلة حمقاء، لكن الشعور المهَيْمن عليّ هو أن العالم الخارجي لم يَعُد يُغريني. يمكن أن أُمضي أياماً متتالية وأنا تائهة وسط رؤىً مبهمة، هاربة من كلّ ما يلتمع في الذاكرة. أُغمض عينيّ وأجهد في البحث عن نقطة صفْر لا يوجد بها شيءٌ يشدُّني إلى ما حوْلي. وكلما وَخَزَتْني الأَصوات والنداءات والكلمات المتناهية إليّ من الشارع، أمعنتُ في ملاحقة السَّديم الذي يُنسيني انتمائي إلى هذا العالم. أنت لم تتوقَّع، وأنت تتخيَّلُني، أن أَغدو هكذا: نقيض تلك التي أسْبَلتَ عليها اندفاعات التَّحدّي وشراهة الإقبال على الحياة.

توقفت قليلاً ثم استأنفتْ:

«أوافق على ما كتَبتَه، في مُجمله. لكن هناك أشياء أفلتتْ من
:اكرة الهادي ولم يَتَداركْها قلمك. تريد أن أضرب لك مثلاً ؟ أنت
ـعرف، ولا شكّ، حانة «عند ألكسندر» Chez Alexandre الواقعة
ٍراء صرح البانتيون من جهة اليسار. هل تذكرها ؟ هناك تَسلَّلتْ
لى نفسي سُوسةُ الضياع والتآكل. كنتُ أرتادها من العاشرة ليلاً
حتى الفجر. الڤودكا، وألحان غجرية وأصواتُ مغنيين روسيِّين
كتسح الفضاء وتثقُب سواد الليل، والرقص المحموم المكهرب
لروح والجسد. هناك بدأتُ أقلد إزادورا بعد أن قرأتُ كتابها
حياتي» وشاهدتُ فيلماً يشخص مشاهد من رحلاتها ومُغامَراتها
ٍرقصاتها الساحرة. كانت تقول: عندما أُسألُ متى بدأت أرقص
جيب وأنا في حضن أُمي! ماتت المسكينة مخنوقةً بأُنشوطتها
لحريرية عندما كانت تقود سيارتها. آه! لو أن تجربة الحياة بكاملها
ـانت تبدأ وتنتهي ونحن في رحم الأُم ما نزال؛ ثم يُعطى لَنا الحق
ي أن نكرر التجربة فنختار، عندئذ، حياةً لا يَطُولها الزوال!

في ذلك المرقص، كنت أتفجر حركةً وحبوراً وأمسك بكلّ
لَّحظات التي أتوهَّم أنها ستَمنحني سعادة عابرة؛ وكانت عواطفي
ـشتعلة تدفعني إلى الجَرْي وراء الحالات القُصوى. لكن الذين
ـانوا يحيطون بي لم يكونوا يدركون. وعندما تبيّنوا أنني كنتُ جادة
ي ملاحقة ما كانوا يعتبرونه سراباً، أخذوا ينفضّون من حولي.
ـبريائي مَنَعَتْنِي من أن أشكو أو أُعاتب. ربما لأنني أدركتُ أن لا

أحد يحمل الآخر فوق كتفيْه ليُبعده عن القفْر، أو ينوب عنه في مواجهة رحلة التدهور . . .

وها أنا كما ترى: أعيش وسط مدينة تمتلىء بالحركة والضوضاء والكلام والصراخ، غير أنني أظلّ خارج ما يحيط بي، بعيدة عن زمن مَنْ أُوجدُ معهم في نفس الفضاء. هل في هذا الزمن ما يُفْرِح بعد؟ أي فرق بين أن أكون داخله أو خارجه؟ احك لي عن الهادي. هل صنع بحياته أفضل ممّا صنعت؟ انقطعتْ عني أخباره. أنت تختلف عن الهَادي. على الأقل كتبتَ تلك الرواية وحاولتَ أن تفهم ذاتك من خلال ما حدث للآخرين منْ حولك. نَسَجتَ خيوطاً لتجتذب القُرّاء إلى فضاءات لم تكن مألوفة لديْهم. أغريْتَهم، فتسلَّلوا ليستمعوا إلى كلام الشخوص وحكاياتهم وشُجونهم فأخذوا يُقنعون أنفسهم بأنهم يمكن أن يتسلوا بممارسة لعبة النسيان والابتعاد عن ذاكرتهم الملأى.

أنا، الآن، أُحس بنوع من الأسى لأنّني لم ألجأ مثلك إلى الكلمات. أريد أن أسألك: هل هناك، فعلاً، مَنْ يستطيع أن يُعلّمَ الناس النسيان أو أن يُسعفهم عليه؟».

صمتَتْ من جديد. استأنفتْ بصوت أكثر شجى:

«لو كانت لي أم قوية، مصمّمة، مُجربة مثل أم سالومي لعلَّمتني كيف أُطالب برأس مَنْ خَذلني وتركني على عطشي. لا تظنّن أنّني أُلّح للهادي، لا. فعندما قابلتُه كنتُ، مُنْذ ذاك، أروم النِّسيان. لعلي أقصد ذلك الذي قاد خطواتي الأولى على طريق

الرفض واستنطاق الجسد لأسْتكشف ترفَ الغواية والحب ثم تركني ليعود، مطمئناً، إلى زَواج مُرتَّبَ أعدَّته له العائلة. في البداية لم أهتمّ. كان فضولي أقوى من كل شيء، وكنتُ أجري - كما قلتُ لك - وراء الحالات القصوى. ثم أحسستُ، شيئاً فشيئاً، أن ثُقباً صغيراً بجسدي وروحي يُخرج هواءً مثل الدُّولاب عندما «يتنفَّس». . . وانتهيتُ إلى ما ترى: وجدتُني أشعر بالاختلال والتباعد عَنْ جميع من ألتقيهم لأنني أرفضُ أن تغدو الأشياء والعلائق عاديةً مقبولة، مفصولة عن الزخم الذي رافقَها في مرحلة الاستكشاف والاندفاع. أصبحتُ مشدودة إلى التأمل ومناجاة الذاكرة. تمنَّيتُ أن أكون مخلوقة برأسيْن فلا أنام أبداً إذْ يتناوبُ الرأسان فأضمن يقظةً دائمة! لا يُفيدني النوم. حالتي هذه أفضل: أعيش متأمِّلة، لاهثة وراء زمن ينغل بقوَّة في الحنايا. أُديرُ احتمالات العيش والتحقُّق في مخيلتي بعيداً عن التَّصحُّر الذَي يغْمر كلَّ ما هو قائم ومتحقِّق مِنْ حولي. . . »

صمتتْ من جديد.

لم تكن ملامحها متطابقةً مع ما تخيَّلتُ أن تكونه ف. ب في «لعبة النسيان». ورغم ذلك، كانت هناك تشابهات كثيرة. قلت سبحان مَنْ يخلق من الشَّبه أربعين. لا أحد يتفرَّد تماماً في شكله ومشاعره. وإذا كانت ف. ب قد انبثقتْ عندي من صلصال المخيّلة، فها هي أمامي، من لحم ودم: مختلفة ومتطابقة، أبعد ما تكون عن اللُّعبة التي أويتُ إلى ظَلالها زمناً. فكيف يستقيم الحوار

بيْننا وأنا مُرْتَهنٌ لصورة هلامية، احتمالية، فيما التي هي أمامي مُنغرسة في سياق ملموس، حيَّة نابضة يخترق كلامُها كلَّ الغشاوات؟

أُخالسها النّظر ثم ألجأ، بسرعة، إلى المقارنة: نفس العينيْن المشعتيْن ذكاءً وسخرية، لكن تعبير الوجه وحركات الجسد أكثر هدوءً من تعبيرات ف. ب. المتوتِّرة، المتوثِّبة؛ فكأنَّ مسافةً تفصل التي هي أمامي عمّا يحيط بها، فيغدو جسدها مُكَوْكباً يشعُّ بحضور وجدانيّ غامر، لا يمكن أن نتبيَّن الجسد بمعزل عنه. نفس التلفُّظَ الهادئ، ونفس اللَّثغة التي تخيلتُها عند ف. ب، إلاّ أن المُعْجم مختلف لأن ما أستمع إليه الآن مُصفّىً من السخرية والتلميحات اللاذعة كأنّما هو صادر من وراء القَبْر؛ والكلمات تحمل أصداء نشيد الإنشاد، ورحابة الرؤيا الحلمية التي تلوح كَالومض المبهر. ثم إن النُّتف التي أسمعها من قصَّتها تلتقي مع ما حكَتْه الروايةُ باقتضاب شديد عن ف. ب. المتخيَّلة. هناك، إذن، أكثر من ذات ومن رأس في الجسد الواحد، وأكثر من لغةٍ للتعبير عن ذاكرة تُوهمُنا بأنّها واحدة لا شريك لها!

وجاءني صوتُها مُنَبِّهاً: أنتَ لا تكاد تقول شيئاً وتكتفي بِهزَّات من رأسك.

- أنا أنصتُ إليك. أترك لك الكلام لتستعيدي صوتك الذي سرقتُه منك، عن غير علْم، فيَ رواية «لعبة النسيان». كل هذا الكلام الجميل ما كان لي أن أتخيَّل أنه كامنٌ في صدر امرأة مثلك

من دمٍ ولحم. أنا لم أكُنْ محظوظاً مثل الهادي الذي تعرَّف عليك وأنتَ في ريْعانك، في أُبَّهة الأوْج.

– يظهر أن الهادي لم يخبرك بأنّني غامرتُ أيضاً في متاهات الكتابة. لم تكتمل التجربة ولم أرْضَ عمّا كتبتُ فدمَّرت صفحات عديدة. خُضْتُ التجربة على مستوييْن: في المرّة الأول اجتذَبَتْني فكرةُ النّفي فسعيت إلى تجميع الموادّ والمراجع لأكتب أُطروحةً عن النَّفي عند هيجل وماركس وفرويْد. لم يكن قصدي أن أُنْجز مجرد بحث جامعيّ. كان شيء آخر يحركني. هل تُدرك معنَى التعطُّش إلى الحرية، إلى المعرفة، إلى امتلاك العالم من خلال منهج جديد؟

عندما وصلتُ إلى باريس أدركتُ أن الحياة يُمْكنُ أن تكون مختلفةً عمَّا عشتُه في المغرب تحت وصاية تأخذ أكثرَ من شكل. وجدتُ أن الفتاة تستطيع أن تكون مسؤولة عن ذاتها وأن تواجه أعباء حريتها وأسئلتها الخاصة، الصعبة. في البداية، رُحْتُ أقرأ بنَهَم، أناقش وأكرع من كل الكؤوس التي ظننتُ أنها ستروي غَليلي. وأغْرتْني لحظة المراجعة وإعادة النظر في الفكر الفلسفي الفرنسي خلال الستينات، فاستسلمتُ للإغراء واهتَمَمْتُ بفكرة النَّفي التي اعتبرتُها رحماً منها تُولد الأشياء المثيرة والتغيُّرات المجدِّدة. لم أكن أستَطيع أن أثبت ذاتي إلاَّ بنَفْي الموروث الذي شلَّ وجودي وحوَّلني إسفنجة تمتصُّ ما يُلقى إليَها من معلومات وأوامر وتعاليم. الأب. زوجة الأب. العمَّات. الخالات. عيب.

حشومة. البنات ما يخرجوش مع الأولاد... في المدرسة الفرنسية فقط كنت أتنفس بحريّة لبضع ساعات. لكنني ظللتُ محافظة على السّلوك الذي يُرضي أبي لأُقنعه بأنني أستحقُ السفر إلى جامعات باريس. وهناك وجدتُ، عند هيجل وماركس، ما غذّى لديّ الإيمان بنَفْي ما هو قائم لاستجلاء ما هو كامنٌ في المجتمع والإنسان. صيرورة التاريخ تُوجهها قُوى النَّفي؛ وفرويْد نَفَى الصورة الوردية التي استطابَتْها المجتمعات المسيحية عن وَحْدة النفس والسلوك ورُجْحان الإرادة. نَفَى تلك التطهُّرية المواربة وفَضَح اللُّيونة التي تُخفي الغليان. قَدَرُ الإنسان أن يعانق العنف الملتصق بكل مجالات حياته. والنفيُ مُنطلق لاستكشاف العنف، والعنف دليل الثورة وجوهرها... هكذا كنتُ أتخيل العلائق والطريق إلى إعادة صوْغ العالم. كنتُ أقرأ وأكتب وأنا أفكر في ما عشتُه بالمغرب، وفيما أطمح إلى تغييره لتستطيع النساء في بلادي أن يمارسن حريّتهن. ولم استطع أن أُتمِّم ما بدأت. كنت أُوثر الاستجابة إلى رغائبي وإلى ما هو أعمق من الكتب. وفي أحيان عديدة، كنتُ أحس أن ما أسعى إلى تحليله والتعبير عنه، قد أضحى ضمْن البديهيات وأنّ آخرين قد سبقوني إلى قوله. ولم أكن أريد أن تَنْقَضي إقامتي الدراسية دون أن أستوعب وأُجرّب ما يُوفره المجتمع الفرنسي الباحث، عبر انتفاضَته في ربيع 1968، عن صيغة مغايرة للحياة القائمة ولعلائق الأسرة والأنماط السلوكية

ولبرامج التعليم وتوزيع الثروات. . . عندما يمشي الحلم، فجأةً، على قدمين تنتفي قيمةُ الكتابة. أليس كذلك؟

سنوات بعد عودتي إلى المغرب، وتحت وطأة الاختناق الذي تَعاظَم منذ السبعينات، بدأتُ أُناغي طيف رواية أكتبها عن عالمٍ سرِّي يوجد مُضاعفاً لذلك العالم البارز، الملموس الذي كنت أرزحَ تحت ثقْله وكوابيسه. وكانت ملامح الرواية تقترن عندي بتشخيص إيتوبيا غير فاضلة، تحكمها أخلاقيات أخرى تجعل من تحقيق الذات، بحريَّة وطلاقة، هدفا أسمى. إيتوبيا غير فاضلة تكون هي نقيض التَّقْييد والمساومة، والحجْر، وتَوْريث العادات والقيَم والمال. كنتَ أريد أن أقترب، في روايتي، من ذلك العالم المضاعف لعالمنا الظاهر، والذي كنتُ أستشعر وجوده رغم أن الناس تَتناساه، أو تَصرف السمع عن نداءاته الملحاحة. عالم سريٌّ تعتمد علائقُه منطقاً آخر: بقَدْر ما نعيش، بقدر ما نكتشف أن الذي فاتَ هو اختفاء لجزء من كَياننا، أي لتلك الحالة التي كانت تجعلنا أكثر حماسةً وتوقُّدا وإقبالا على الدنيا. . . وكُلما عشْنا، احترقتْ تلك المادة الحياتية وتَلاشَى قسْطٌ منها. وهذا ما نُدَركه في التَّوِّ، بالحدس ثم عَبْرَ التجربة. ومن ثمَّ يتبلور وعيُنا بالسير نحو الموت، نحو اللاَّحياة. واللعبة مُسْتحكمة: حب الحياة مُتَمكِّنٌ منَّا، وما نعيشه يقودنا حتماً إلى نُقْصان ذلك الحب وإلى ارتياد متاهات الكلام باحثين، عبَثاً، عمَّا يُوهمنا بأننا ما نزال مستمرين في حَلَبَةِ الحياة. . .

كتبتُ صفحات من تلك الرواية ثم أعرضتُ عنها».

توقّفتْ بضع دقائق، فامتدَّ صمتٌ كثيف. استأنفتْ وهي تنظر عبر النافذة:

«أليستْ المعضلة هي أننا لا نَحسم في ما نَقْبَلُه وما نرفضُه؟ قد لا نكون متأكدين من اختيارنا، لكنني أقول، الآن، علينا أن نَتحمّل مخاطر اندفاعنا نحو ما نُحس أنَّه يملأ الكيان. بعد ذلك، لا يهمُّ أن نُغير الموقف، أن نُعلن قناعة جديدة. . . لأن ذلك يضمن، على الأقل، اشْتعالَ الوجدان والتحمّس لشيء يَجْتذبنا. أما عندما نلجأ إلى التَّوليف والتوازُن وإمساك العَصَى من الوسط، فإننا نمهِّد للخمود ونَخْطو فوق رمال رخوة سرعان ما نغُوص فيها، فلا نَعُودُ قادرين على الحركة بملء جسدنا، بكل ما يملؤنا من حبّ وكراهية وعدوانية وطيبوبة. . . نَغْدُو بِلا طَعْم؟ ربما هذه هي الكلمة المناسبة.

أظنّ أن أصعب شيء هو أن نتساءل: ماذا فعلنا بحياتنا؟ عندئذ يبدو كل شيء تافهاً، بدون ثقْل، خاصة حينَما نَعي مع مرور الأيام، أن العدم في انتظارنا ونحن إنما نتحايل كي لا نراه واقفاً عند الأفق يترصَّدنا. الحياة؟ طبعاً جذابة وجميلة عندما نَستبدلها بالموت ونتَّخذ منها حافزاً للتفكير والممارسة. لكن كيف نقْوى على معانقتها وكل ما حولنا يُبْعدنا عنها؟

قُلتَ لي منذ قليل بأنني من دم ولحم وأنا أتلفَّظ أمامك بهذا الكلام. لعلّي لستُ كما تتصوَّر. يُخيل إلي أنني خُلقتُ من نسيان وإليه

أعود. ليس النسيان لعبةً، النسيان امرأةٌ منها يُجْبَلُ المولود والمعدوم وعبرها يتجدَّد الجسد والذاكرة والنُّسوغ وكل ما يمت بصلة إلى الحياة. . . قد لا أكون مثل جميع النساء، إلاَّ أنني أُحس أنني أنتمي إلى قبيلة أَلفَتْ أن تُحاصَر بالغدر والعقوق والهجران. ألأجْل ذلك أستظل بالنسيان لأتَّخذ منه واحَةً تُنْذر نفسها لكل الاحتمالات البِكْر؟

ها جسدي

(تخلع قميصها الحريري فيبدو بياضُها المرقوش بالنَمش، والنهدان في شكل إجَّاصتين يانعتيْن. همستُ في سرّيَ: يا الله! مِثْلما وَصَفَها لي الهادي)

ألا تريد أن تُلامسه أو تُداعبه؟ أم أنك تحسبُني في عداد الموتَى فَتُعرض عن مضاجعتي، مع أنك جعلتَ الهادي يُضاجع، من خلال البياض، جسد زوجة خاله الراحلة. . . ليس الموتُ بَشِعاً ولا بارداً بالمقدار الذي تتصورً.

- قد يكون الموت هو مستقبلُنا.

- هذا كلام. أي كلام. أنتَ ما تزال مشدوداً إلى الحياة. تستمع إليَّ وأنت تفكر في الصيغة التي ستُشخّص بها هذا اللقاء الذي لم تكن تتوقَّعه.

- أبداً. أنا كنتُ أفكر في صيغة الموت كما وردت في فلسفة الزِّن: البوذيون أيضاً لا يعتبرون الموت مُرعباً بل سبيل إلى رحلة التحقُّق المكتَمل والاندماج من جديد في الطبيعة حيث يظل الإنسان مُتحوِّلاً باستمرار. . .

– هذا أيضاً مجرد كلام. لا أُحسُّك قريباً منّي عبر ما تقوله. كأنك تبحث عن كلمات تُباعد بينك وبين ما أنا عليه. أنا آفِلَةٌ تعيش أيامها الأخيرة وأنت تُحصِّن نفسك وراء متَارِيس من ألفاظَ.

صمتتْ أكثر ممّا توقَّعتُ.

خَيَّم توتّر على الغرفة التي غمرتْها ظُلمةُ الغروب. بعد قليل، قالت:

– آسفة. أنا أشكر لك حضورك. لا تُؤاخذني على ما تَفوَّهتُ به الآن. أنا متأكدة من أن هُنَاك أشياء مشتركة بيننا، وخلال هذه الساعات التي أمضيناها معاً لم تُطوِّقني الغربةُ كَذي قَبْل. هل تَعدُني بأنك ستعود لزيارتي؟ أنت تعرف طريق الوصول إليَّ ولا أَحتاج أن أرسل لك صديقتي.

هززتُ رأسي موافقاً. أضافتْ:

– لا تَنْس أن أيامي معدودة في هذه الدنيا. نفسي تُنْبئني. لا تتأخر كثيراً.

رغم ضوضاء الشارع وأبواق السيارات وجاذبية الوجوه والحركة، ظللتُ مشدوداً إلى ما دار في اللّقاء. أسير وخواطري تتزاحَم قبل أن تتلاشى كفقاقيع الماء. هي راحلة وأنا مستمرٌّ في هذه الحياة الدنيا. لماذا الآن يُلاحقني هذا السؤال البديهي ويكاد يَشلُّ حركتي. ألأنَّ ف. ب. تبدو في أوان أُفولها مُزَلْزِلَةً لكل التبريرات التي طالما احتميتُ بها لأُقنع نفسي بالاستمرار مُحتمياً من الموت بالسَّهْوِ والنسيان؟

ف. ب أكثر ملموسية وحيوية من أي شخص، من أي شيء آخر. هي مزيج ممَّا ابتدعتْه المخيّلة وممَّا صَادَفَتْه الحواس وشاهدته العيْن. لم أكنْ أتَصورَّ أن شفافية جسَدها بتأثير المرض وهشاشة روحها تحت وطأة العُزلة وحَدْس قُرب الرحيل، سيجعلان منها إنسانة تتدثَّر صَلابةَ الصخْر وتُجسِّدُ منطقاً لا يُغالَب. أحسستُ، فعلاً، أن برزخاً يفصل بيْننا: هي في عالم يكتسب حقيقته من مَجْهُوليته ولا مُنْتهَائيته، وأنا على الأرض أزحف مُتشبِّثاً بذُيول اليوميّ المعَاد وبأوهامِ مُتعٍ غير مسبوقة.

لا شيء يمكن أنَ يجْعل كلامنا مُشتَرك الدّلالة. رغم ذلك، أُحسني منجذباً إليها، غَاضاً الطرف عن الشكوك التي تَقْضمُني بل تُخَرسني. وهي؟ مُطمئنَّة في تأهُّبها لرحلتها نحو عالم أُخَرويّ، تتكلم بما يشبه الوُثوق، منفصلةً عنّي وعمَّا حولي ومحتوية له في آنٍ. تتكلم، فأُحسني عاجزاً عن إدراك كلامها.

.2.

حتَّى عند مُجرَّد تحليق فراشة

تكون السماءُ بِكاملها ضرورية .

بُول كلوديل

عـدتُ من سـفـر طويل إلى الرباط، خـريف 1998 . بَدَت لي المدينة متثائبة، متدثرة بشمس متأججة أكثر من المألوف. مظاهر التباين تزداد ما بين الأحياء الشعبية وأحياء الإقامات الفخمة التي تُرَاكِمُ علامات البذخ. في بداية المساء، يتجمع المُوسرُون عند المقاهي والمطاعم المنتمية بأسمائها إلى العراقة الباريسية: عند پُولْ، لُونُوتْر، ألف ورقة، النوارس . . . إلا أنها تَجمُّعات أشْبه بالفقاقيع: ازدحام السيارات الفخمة، الأطفال والمراهقون بملابسهم الأمريكية، والزوجات المصونات بفساتين الخياطة الرفيعة يتهادين على الأرصفة المجاورة للمَخْبَزَات الفاخرة، وتحيات متبادلة بأصوات مرتفعة وخلط من اللغات يُضفي طابعاً كوسموبوليتياً على تلك التجمعات. لكن سرعان ما تنفض تلك اللقاءات الواقفة عندما تقتربُ الساعة من التاسعة ليلاً فتعود الشوارع إلى ما يشبه السُّبات.

كنتُ هذه المرة عازماً على أن أبدأ بزيارة ف . ب كما وعدتها، وكانت تَرجيعات لقائنا الأخير تنقلني إلى مناخ مُغرق في المفارقة يستثيرني ويطرد الرَّخاوةَ عن حواسي ومشاعري. غير أنني طوال الليلة الأولى استسلمتُ لملاحقة شعور خاص تَخَايَلَ لي من قبل ثم حاصرني بقوّة: لم أعُدْ أشعر بالغربة في أي مكان حَلَلْتُ به. هنا أو خارج الوطن سيَّان. كأن حالة شعورية واحدة تُدثّرني وتُحصِّنني ضد مشاعر القلق والانتظار والخوف التي كانت تتسلل إليّ عندما أسافر، أو كانت تنتظرني عند العودة وأنا أستعيد الإيقاع المعتاد لحياتي.

اضطررت في السنوات الأخيرة إلى التنقل بين بُلدان مختلفة. في كل مرّة كنت أحس أن مشاعر الغربة واللاّانسجام التي لازمت رحلاتي أيام الشباب أخذت تتقهقر. لم أعُدْ أجد صعوبة في التواصل، بشكل أو بآخر، مع ما حولي، ولم تعد مظاهر الاختلاف تؤثر على إيقاعي الحياتي الداخلي الذي تبلور في شكل رحلة طويلة تمرّ بمحطّات إلاّ أنها تظل مشدودة إلى السكّة التي آثرتُ أن أسلكها. عزوتُ هذه الطمأنينة إلى السنّ وإلى اقترابي من مرحلة التوازن والأناة في التعاطي مع الناس والأحداث. وتذكرت ما قالته ف. ب. في لقائنا الأول «بقدر ما نعيش بقدر ما نكتشف أن الذي فَاتَ هو اختفاء لجزء من كياننا، أي لتلك الحالة التي تجعلنا أكثر حماسة وتوقداً وإقبالاً على الدنيا...». ولم أتبيّن إذا كنتُ فعلاً أقَلَّ إقبالاً على الحياة من ذي قبل. ما أحسستُه، في هذه الزيارة، هو أنني مُتدثر بكساء الألفة الواقي من الغُربة وخيبات الأمل. لذلك، منذ اليوم التالي لوصولي، استأنفت حياتي كأنني لم أكن على سفر: قراءة الصحف، تليفونات للأصدقاء والصديقات، شراء الأكل ومواد التنظيف وأكياس القمامة...

في بداية المساء رنّ الهاتف ليحمل إليّ صوت أحد الأصدقاء الذي علم بوصولي. لم أكن قد رأيته أو سمعتُ صَوْتَه منذ سنة تقريباً. إلاّ أنني وجدتُني أهتف بكُنْيَتِه المحببة: سي مُصْلح العزيز آش اخبارك؟

وغمرني بلطفه وعباراته الودية: الظريف، الغزال،

الأديب، الفهيم . . . ولا تعود علاقتي بمصلح إلى الحزب فقط، بل أعرفه منذ الطفولة عندما كنا نلتقي في أحياء الرباط خلال مُباريات كرة القدم، أو في شاطئ السباحة. ثم تباعدنا بعد مرحلة الدراسة الثانوية، لأنه سافر إلى فرنسا حيث مكث عدة سنوات. بعد الاستقلال تواجدنا داخل الحزب وتقاربنا أكثر في فترة الستينات حينَ اشتداد القمع. وارتبطت شخصيته عندي بعلامتين: الأناقَة المتواشجة بدماثة خلق نادرة، ثم تفانيه في النضال المتكتم، البعيد عن الغرض. وأظن أننا أطلقنا عليه مصلح لأنه كان يحافظ على هدوئه خلال الأزمات والتوترات التي تسود بين المناضلين، فيسارع إلى دعوتهم ليتناقشوا ويتكاشفوا ثم ليتصالحوا قبل مغادرة بيته. وكان هو أحد المشرفين الأساسيين على توفير المؤونة للمعتقلين: وجبات طعام، الملابس، السجائر، النقود، الكتب. . . دائما يتطوع ودائما ينجح في الحصول على المال من المتعاطفين والمتضامنين، وغالبا ما يسدد النفقات من جيبه. وفاجأني، ذات مرة، عندما ألمحت إليه أنني لا أستطيع زيارة صديقين بسجن لعلو لأن ميزانيتي لا تسمح، بأنه قد ناب عني وقدم لهما مؤونة باسمي. وفي بيت عائلته العريق، وقبل أن يتزوج، كنا نغتنم الفرصة، وسط الاجتماعات والاعتقالات، لنسهر ونفضفض قليلاً، فكان يحكي لي عن إقامته بباريس وعن مغامراته وعن جوانب لم أكن أعرفها من تفاصيل حياة الحزب هناك. وكان تفاؤله يذهلني إذ يحين الوداع فيفاجئني بابتسامته الودودة وهو

يقول : كل شدّة بعدها الفرج . لا تبتئس ، افعل مثلي : كلما ضاق بي الحال أشتري عشرة كيلوات من البرتقال وآكلها بسرعة ونهم إلى أن تنقطع أنفاسي ولا أعود أفكر في شيء! نتعانق ونضحك بصوت مرتفع ، وأعود إلى بيتي مُتطامناً ، متحدياً مناخ القهر الذي كان يسعى إلى أن يجعلنا أشبه بالجُرْذان المحاصرة . وعندما كنتُ أسأل مصلح عما يجعله مثابراً في نضاله ، مطمئناً إلى عدالة مواقفنا ، كان يكتفي بالقول : «أنا هكذا ، أن تتغير الأوضاع لصالح الذين ضحوا من أجل الاستقلال ، ثم أنني أعرف ما يجري في أوساط الذين يحكموننا من فوق بالعنف مصادرين حريتنا . لي أصدقاء يعيشون في كنَفهم ويحكون لي عن استهتاراتهم وقسوتهم وخواء أفئدتهم . . . » .

بَعْدَ الثمانينات تَبَاعَدْنَا . إلاّ أن اتصالات صُدْفَوية وهاتفية كانت تحافظ على جسور الصداقة بيننا . كان يحكي لي عن تفاصيل مرحلة «مَكَانَك سر» وعن التبدُّلات التي طرأت على علائق المناضلين وعن مظاهر التأزّم المخترقة للحزب كما للمجتمع . غالباً ما كان يستفسرني في نهاية المكالمة :

– قُل لي ٱلعزيزْ ، أما تزال قادراً على الضحك من قلبك كما كنا نفعل في الستينات والسبعينات؟

أفاجأ بالسؤال فأطيل الصمت . يضيف :

– أنا هجرني الضحك الصادر من الأعماق . لا أعرف لماذا . . . » .

هل نستطيع إحصاء اللحظات التي نكون فيها منتشين بالحياة ،

عائشين قُرباء من ذواتنا، مستسلمين لسحر الوجود الذي لا يُقيدنا بشيء يعارض رغباتنا، فنضحك، حينئذ، من الأعماق؟

مثل تلك اللحظات تأتي، غالباً، فجأة أو عندما يتوافر مناخ يجعلنا نحس بالانطلاق، باندفاعة توقظ مشاعر غافية، مدّخرة، فننتبه إلى ذلك الشيء الجميل، المبهم الذي تعمى عُيوننا عنه . . . كيف نسمي تلك اللحظات؟ كيف نعيش، دوماً، قريبين منها؟

تمضي أيام، شهور، أحياناً قبل أن نتفطّن إلى الدوّامة التي تَبتلعنا وتجعلنا نتحمل المواضعات واللّياقات بدلاً من أن نعيش ما نظن أنّه جوهر الحياة. . .

هذا المساء، عندما سمعت صوت مصلح، تحرك الوجدان لأن الغياب الممتد بيننا، منذ سنة، هو أقرب إلى الحضور العام، وكأنني أستحضر ذاتي المتوارية، الراصدة لتلك الذبذبات الخفية اللاّبدة بأغوار الوعي. كنت أظن أنه سيدعوني إلى لقاء منفرد ولكنّه أصرّ على أن أرافقه لحضور حفلة عشاء موسعة يحضرها عدد من الإخوان.

حاولتُ أن أتملص مُذكّراً إياه بالخيبة التي استشعرتُها في السنة الماضية، عندما أخذني إلى حفلة أقامها أخٌ لنا مُستَوزر بمناسبة زفاف ابنه أو ابنته، وكانت باذخةً حدَّ السَّفَه (ثلاثة أجواق من مناطق مختلفة، خرفَانٌ مشوية بالعشرات، بَسْطيلات يسيل لها اللُّعاب، دجاجٌ محمَّر مكتَّف داخل الطواجين، فواكه وحلويات وعصائر بكل الألوان. . .) غير أنه أكّد لي أن الأمر، هذه المرة، مختلف لأن

هناك رغبة في النقاش وتحليل التجربة . . . ثم عليّ أن أرى وأسمع ما دمتُ كثير السفر ولا أتابع الأحوال عن قُرْب. وجدتُ أنه مقنع، كعادته، وأن السهرة بوجوده لن تَخْلُوَ من متعة.

وعندما انسابت السيارة مع أحد الشوارع الفرعية المكسوّة جُدْرانُها بنَباتات مقصوصة بعناية، التفتَ إليَّ مصلح قائلاً:

- لعلك لا تعرف الڤيلا الجديدة للأخ الحلايْبي؟

لم أكن أعرفها، لكنني أعرف صاحبها عن طريق السماع ومن خلال لقاءات معدودة لم تبدّد صورته الغامضة لديَّ. هو مناضل قديم أصبح رجل أعمال. مارس المحاماة في بداية المشوار واغتنى مستفيداً من فُرَص ملائمة ولم يكن يبخل على الحزب بأمواله. وقيل لي، ذات مرةً، أنه مكلفٌ بربط العلاقة مع القصر والحفاظ على شعرة معاوية التي تفيد في فترات القمع والمواجهة. كان يجيد الحديث ويوحي لك بأنه يعرف أسراراً كثيرة دون أن يتخلى عن هالة الغموض التي تَنْسُجُ حوله هيبةَ النفوذ. لكنه كان يُتْقن المجاملةَ ويتتبع أخبار ونشاطات المناضلين القدماء والجدد علَى السواء. وخلال المرّات القليلة التي التقيتُه كان يبادرني بأنه ينتظر أنْ أُهديه كتبي ليقرأها لأن كثيرين أثْنَوا عليها. ووجدت أن الڤيلا أوسع مما كنت أتصوّر: مدخل طويل وحديقة شاسعة ومسبح مُضاء يُضاهي بحجمه المسابح العمومية؛ والصالونات فسيحة مُتداخلة ومتنوِعة بين النمط التقليدي والعصري، واللوحات الكبيرة تستنسخ مَنَاظرَ الطبيعة ومشاهد فولكلورية، وأوان نحاسية وتماثيل لِبُوذا الثخين فَي

أوضاع مختلفة مُستعملة بِمثابة قوائم لمصابيح موضوعة في زوايا الغرف . . .

كان عدد الحضور، رجالاً ونساءً، يقارب الخمسين. أعرف معظمهم بدرجات متفاوتة. لاحظت أن النساء (الزوجات وبعض العازبات) يجلسن بعيداً عن الرجال، مُنهمكات في الحديث والمُسارَّة. والرجال في الشق الثاني من الصالون، يتناقشون ويتبادلون الأخبار، فيما أغنية عربية تَتَناهى إلى الأسماع من غرفة مُجاورة.

رغم التَّرحيب وتَبادُل القُبَل، خُيِّل إليَّ أن معظم الحاضرين لم يكونوا يتوقَّعون مجيئي. نظرتُ إلى مُصلح فوجدته مبتسماً يتنقل بين الإخوان والأخوات، مُسلِّماً ومُمازحاً. وخطر ببَالي أنه استدعاني لمرافقته حتّى لا أطالبه بمَحْضَر عمّا جرى أثناءَ ما كنتُ مسافراً. لعلّه يريد أن يتسلّى وهو يراني محشوراً وسط هذا المناخ الجديد الذي تنطق علاماتُه، وصوره، وملابس نَاسه، وقاموسهم بما طرأ على حالهم (أحوالنا)، من تحولات. ولم أردْ أن أتصرف كَدَخيلٍ على السَّهرة والساهرين. أنا منْهُم رغم ما قَد أشعر به من تَبَاعُد، وتذكرتُ أنني، هذا الصباح، أحسستني قادراً على تكسير الغربة وعلى نَسْجِ التآلف مع كل المختَلفَات.

بدأت أتنقلِ بين الإخوان مُسلّماً، مستفسراً عن الصحة العائلة، مهنئاً مَنْ استوزروا أو عُيِّنوا في مناصب إدارية مرموقة. التعليقات المتبادلة لا تبتعد كثيراً عمَّا كنتُ أقرؤه في الجريدة أو في

التصريحات التوضيحية : هناك إجراءات وقرارات هامّة سيظهر مفعولُها بعد سنوات، الإرثُ ثقيل وأعداء التغيير يُناورون ويتربصون. لا بدّ من دراسة الملفات وتعلّم تدبير شؤون الدولة؛ مسؤوليتنا هي قبل كل شيء إنقاذ البلاد من التردّي الذي يتهدَّدُها الخ . . .

خلال تناول العشاء، حكى بعض الإخوان نُكتاً للابتعاد قليلاً عن هموم الساعة. وروى ج. نكتة زَعَمَ أنها وقعت بالفعل في فاس؛ فقد خرج أحد زبائن البارات متمايلاً في ساعة متأخرة من الليل ووجد أمامه فاركُونيتْ الشرطة التي تتصيَّد المخمورين والمتسكّعين. . . ولإنقاذ نفسه، اتّجه نحو رجال البوليس وهو يقول بصوت رزين : تحية نضالية يا إخوان!

معظم الحاضرين في هذا العشاء، كنت ألتقيهم باجتماعات اللجنة المركزية، والآخرون أعرفهم. هل حقّ أنا أعرفهم؟

دَهَمَني شعور بأن العلاقة بيننا قائمة على أرْجُلٍ من طين وأن اجتماعاتنا لم تتخلَّلْها حوارات تُخَوِّل لي أن أعرفهم. أثناء تلك الاجتماعات، كانت لائحة طالبي الكلمة تتجاوز الأربعين شخصاً، وكل واحد منهم يمضي عشرة دقائق في كلام خارج الموضوع وهو يُسَخِّن صوته باحثاً له عن «مقَامٍ» مناسب؛ وعندما يعثر عليه يأتي حديثه عبارة عن تصفية حسابٍ مع مناضل سبقه للكلام أو مع أطروحة غير مألوفة اقترحها البعض للخروج من الانتظارية واجترار التحليلات الجاهزة. وخلال تلك المباراة

الخَطابيــة، كــان كل يغني على «ليــلاه»، واللاّزمــات تتكرّر، والساعات تَمْضي قبل أن يُدرك التعب الجميع وننتهي بقراءة بيانٍ مُعَدٍّ سلفاً. كنتُ أُصابُ بما يشبه الخرس.

ذات مرة، منذ عشرين سنة تقريباً، سمعت مسؤولا في المكتب السياسي يقول بأن ثورة إيران رجعية، مُشوهة للإسلام ولا تحمل نفعاً لحركات التحرير . . . فرفعتُ أصبعي وقلت بأنني أتحفّظ على هذا الكلام، لأن تجربة إيران ما تزال في بدايتها وما حققتهُ ليس عديم الفائدة، والغطاء الإيديُولوجي الراهن قد يعرف تعديلات وانعطافات إيجابية . . . اغتاظ المسؤول الحزبي لأنني ألمحتُ إلى الفرق بين التحليل الذي نُنْجزُه ونحن جالسون على مقاعد أو من خلال ما تنشره صحيفةُ «لوَموند» وبين التحليل الصادر عن زيارة لعيْن المكان والإنصات إلى أصحاب التجربة. وردّ عليّ منفعلاً بأن هَذا موضوع معقد ويُمكنني أن أنسى ما قاله بخُصوصه. وأظن أنني لم أنْسَ مــا قــاله أبداً، إلاَّ أنني مُنذئذ، لم أتدخل في النقــاش واكتفيت بالاستماع إلى الأعضاء الذين يُسخنون حِبَالَهم الصوتية جيداً ويُتْحفُوننا بالكلام المُعَاد.

أعَرفهم أم لا أعرفهم؟

استَغْرقتُ لحظات وأنا أستعرض الوجوه وأحاول استحضار ما أعرفه عن صاحب الوجه. كان أمامي ص. الذي لم أرَهُ منذ سنوات. سلمتُ عليه بحرارة يَشوبُها الفُتور. كان ص. قد لمع إبان النضال الطلابي وارتقى درجات القيادة بسرعة عندما

لجأ إلى خارج البلاد بعد أنْ عرفت السلطات انتماءه إلى تنظيم سري. عاد بعد صدور العفْو واستأنف نشاطه في الحزب معتمداً بالأخص على صوْته الصّادح (تينُور) الذي يزيد في درجة التأثير. لكنه سرعان ما تحوّل إلى مُتَصَادِح فاقد للبريق عندما سلك طريقاً ملتوياً خلال انتخابات تشريعية سابقة. الآن، يوجد في وضع حَرِج لأنه ظل خارج التشكيلة الحكومية بالرغم من علاقاته الوطيدة بأعضاء نافذين عاشوا أيضاً معه في المنفى. ولا أشك في أنه مقتنع بأن ساعته قريبة ليلتحق بردهات السلطة من أبوابها الشرعية هذه المرة. علاقتنا سالكة بفضل المُداوَرة والمجاملة اللّتيْن يُتْقنهما ولا أرفضهما.

طَالَعَني وجه ح. الذي تناقشتُ معه مرّةً، حول ما كتبه في جريدة الحزب عن ضرورة نقل التكنولوجيا المتقدِّمة وتحديث الأجهزة والآليات لنتمكّن من تحقيق قَفزة نوعية . . . وكان قد لفت نظري، من قبل، بسمات وجهه الطفولي، المدوّر، وبلهجته الواثقة في ما يقوله بصوت مرتفع، غالبَ الأحيان. ولم تخرج أحاديثنا عن هذا النطاق العمومي، ربما لأن وثوقيته لم تُشجعني على أن أكتشف جوانب أخرى من شخصيته قد تكون ذات مزايا أفضل. ومنذ سنة، قيل لي بأنه فوجىء بعدم تعيينه في تشكيلة التناوب، فطرق باب صديق له أصبح وزيراً، وأخذ يقنعه بأن يتنازل له عن المنصب لأنه كان مهيئاً نفسياً للوزارة وسبق أن أخبر عائلته بأنه سيُعَيَّن في ذلك المنصب المحتاج إلى كفاءته التكنولوجية!

وهذا وجه ك. ، وسيم، ضاحك، مُجامل، لبيب في إشاراته وإطراءاته. عرفتُه طموحاً منذ كان طالباً بباريس. طالتْ فترةُ المعارضة وطال انتظاره. ناضل طويلاً، لكنه لا يرى أن المناضلين خُلقُوا ليموتوا في المعارضة. فَتَحَ مكتباً للدراسات والاستشارة ووطَّد علاقاته مع بعض الماسكين بالسلطة بعد أن أخذ الضوء الأخضر من الكاتب الأول للحزب. تطورت مشاريعه ففَتَحَ منشأةً لتربية الأبقار واغتنى قبل أن يصبح وزيراً. العارفون بخبايا الأمور يقولون إن سرَّ نجاحه هو أنّه التفت إلى جذوره المخزنية التي قد نسيها عندما انخرط في الحزب، ومن ثمَّ بدأ يسعى إلى المواءمة بين المخزنَ والاشتراكية على غرار ما كان البعض الآخر يدافع عن توافُق الدين مع الفكر الاشتراكي. وأذكر أنني التقيتُه، مرةً، في عشاء بالسفارة الفرنسية أُقيم على شَرف مدير معهد العالم العربي آنذاك، بيزاني، وكان حاضراً في الحفل وزير مغربي شَغَلَ منصبَه أكثر من ثلاثين سنة إلى أن أقْعَده المرض. وعندما دخل ك. ، ورآه على كرسيه الجرّار، اتّجه نحوه وقبَّل رأسه وهو يقول: «أمولاي أحمد تَيْخَصَّكْ تْزَار. أرى ذاك الراس نْبوسو . . .». وعلاقتي به ملتبسة: فهو يدرك أنّني، منْ مَوْقع المراقب غير المنافس، أعرف خطواته ومساره الطموح الذي لن يتوقف عند الوزارة أو السفارة. ويُدرك أيضاً أنني مُبْتَلىً بلَمْلَمَة عناصر روائية من بين ما أشاهده وأعايشه؛ ولذلك قال لي يوماً: «سأفاجئك، مستقبلاً، بكتابة رواية تعجبك. إختصاصي بعيد عن الأدب، لكنك تعرف أنني أقرأ الروايات كلما أتيح لي . . .». عليَّ، إذن، أن أنتظر روايته الموعودة.

وكان هناك، بالطبع، عَوَالا، بابتسامته المدروسة التي تُداري خجلاً واعتداداً مفرطاً بالنفس، أبَانَ عنه في أول مؤتمر حَضَرهُ للحزب، ممثلاً طُلاّب باريس المتنبّهين لما تُفرزه أروِقَةُ الفكر السياسي من اجتهادات وتنويعات على إيقاع صراعات الساحة الفرنسية. الآن، هو في وَضْع مريح لأنه توزَّر وهو في عزّ الشباب، وبلاغته تخدم طموحه، وخبْرتُه تفيد الحكومة فيما يُقال. علاقتنا لا تخلو من مجاملة رغم أن حاجبات تواصل كثيرة تجعلني لا أطمئن إلى ما يتفوَّه به، خاصة بعد ما حكى لي صَديق أثق فيه، أنه شاهد عوالا وهو يبكي عندما علم بإبْعاده من لائحة الترشيحات البرلمانية؛ وكان يضرب الجدار بقبضته ويصرخ: «أنا أحْرَم من الترشيح رغم قيمتي التي يعرفَها الجميع داخل الحزب وخارجه. لا أصدّق ذلك، لا أصدّق . . .».

وتوجهتُ إلى السيدات، وسلمت بحفاوة على ن. التي كنتُ تعرفت عليها منذ عشرين سنة وهي تخطو خطواتها الأولى على دَرْب النضال. وكانت علاقة ودٍّ غامض تتخايل بيننا أحياناً ثم تَخْبُو، وكنت معجباً بطريقتها في التفكير ونزوعها إلى التحرّر من وطأة التقاليد. لكنني فوجئت، منذ عشر سنوات، بزواجها من مُحام مسؤول عن أحد فروع حزب يتمول، لا تخلو شَخصيته من تَسلُّطٍ ووصائية. منذ ذلك، توارت ن. عن الساحة وارتادت حَرَمَ الزوجية ولم يَعُد حضورها يتعدّى نطاق المناسبات أو التجمعات الانتخابية. قالت لي متسمة: ألم تزل تتذكرني؟ قلت: طبعاً رغم

أنك لم تستدعيني لحفلة الزفاف. أين هو زوجك لأعتب عليه أيضاً؟
أجابت: تعذر عليه الحضور لأنه مرتبط بجلسة هامّة في محكمة تطوان . . .

وسلمت بحرارة على ج. ، مناضل له خبرة واسعة في تعبئة «الجماهير» وتأمين استمرار الحزب في فترات التأزم والقمع والاختلاف. رغم أن مستواه التعليمي محدود، فإن له صداقات مع مناضلين من أعلى الدرجات إلى أبْسطها. وقد تمتّنت هذه العلاقات في الفترة الأخيرة بعد أن تَخرّج ابنه من مدرسة عليا في التدبير الاقتصادي وأصبح بحاجة إلى صفقات ومشاريع يُدَوِّر بها الناعورة . . . أحسه قريباً إليَّ لأنه يلعب على المكشوف ويعرف كيف يتعامل مع أرْهَاطَ المناضلين المتعددي الألوان والأمزجة . . .

وكان هناك مناضلون من الوزن الثقيل، دخلوا السجن أو حُكموا بالإعدام. البعض ينظر إلى ما يحدث بتريُّث ويترقّب، والبَعض اندمجوا ودافعوا عن المشاركة في مسلسل التغيير. تذكرتُ المَثَل القائل: «الراس اللّي ما يْدُورْ كُديَه». واستحضرتُ بعض الوجوه الغائبة فأخذت تكتمل في مخيلتي، ملامح هذه المنظمة التي أويتُ إليها منذ ما يقرب من أربعين سنة. أحسستُ، لأوّل مرّة، أن انتمائي ملموس أكثر من ذي قبل لأنه يتوفر الآن على نسيج اجتماعي متشابك، مُتغلغل في معظم الفئات والطبقات، يُفرزَ أفعالاً وردود فعل، ويَنْسلُ رمزيةً تؤثر على مجرى الأحداث، ويُبلور شخوصاً من دمٍ ولحَم، تصلح لأن تستوطن أرجاء النصوص

الروائية، فتَنتعش بسلوكاتها الملتبسة وصراعاتها على المواقع، وعواطفها البشرية التي تَنُوسُ بين السَموّ والخسّة.

وأنا أجيل الطرف في الجالسات والجالسين بالقاعة الفسيحة وعلى وجهي ابتسامة بلهاء، تذكرت فيلم «السطح» للمخرج الإيطالي إيتورسْكُولا. كنتُ قد شاهدتُه في نهاية الستينات وانجذبت إلى صورة البطل الذي يحس نفسه غريباً وسط المدعوات والمدعوين ببدلاتهم السموكنغ والفساتين الديكولتيه، والإقبال النَهم على الشراب وملإ الصحون. كان قد خرج من السجن قبل أسبَوع وتلقى دعوة من صديقة له إلى هذه السهرة، فجاء مُتلهّفاً للقاء الأصدقاء... لكنه كلما التقى نظره بوجه كان يعرفه داخل المنظمة، بادر إلى الإبتسام والتحية بصوت مسموع فيبادله صاحب الوجه تحية سريعة ويتابع طريقه كأنه يبحث عن شخص آخر. أشياء تغيرت وهو داخل السجن وأمارات تُعلن عنها في تلك الحفلة الساهرة...

لم يكن سطح تلك الڤيلا الإيطالية في ليلة صيف، يُشبه دارةَ السيد الحلايْبي، ولم يكن سمْتُ مدْعُوّيه يحاكي حيويةَ الساهرين الإيطالين وتعبيراتهم الكاشفَة؛ إلاّ أن مخيلتي تحركت، خلسةً، لتستولي على الجالسين والجالسات وتعيد استنطاق حركَاتهم وإشاراتهم وكلماتهم التي قد لا تعرف طريقها إلى الإفصاح بانطلاق ودُونما رقابة ذاتية. كانت هناك لعبة مراوغة تبحث لنفسها عن قواعد وأصول.

وخُيِّلَ إليَّ أن هناك نماذج بشرية كثيرة يمكن أن أتصورها خارجة للتوِّ من بعض روايات ستاندال وفلوبير ودوستويفسكي: من تلك الأجواء المفعمة بروح التوثُّب والصعود المُنْبِئَة بمرحلة جديدة قَيْدَ التخلُّق، وتستدعي استنفار كل الحواس، وكل الشراسة المطلوبة. البعض يُغمضون العيون ولا يريدون أن يبصروا الإشارات المعلنة عن نهاية مرحلة، فيزداد تشبُّثهم بمواقف الرفض السابقة، إما لأنهم لا يتوفرون على إمكانات ممارسة السلطة، وإما لأنهم يتوقعون فشل إخوانهم فيتيح لهم ذلك استعادة نفوذهم داخل الحزب. والبعض الآخر أدركوا من خلال قُرون الاستشعار، أن الإشارات واضحة ولا يجوز التقاعس عن التقاطها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، أو لوضع أسس مجتمعية أخرى أو لتعلم لعبة الحكم والديمقراطية أو لربط صلة مباشرة بالقصر وَدَهَاقنته. تختلف التسميات، لكنها تلتقي عند ضرورة استئناف الفعل وَتجديد المنظمة عبر المشاركة والتعلّم ولسان حالهم يقول: «تحرّكوا تُرزقوا».

كل هذا جميل ومفهوم، أقول في نفسي. لكن لماذا لا ألمح وسط هذا الحشد تلك «الحكاية الشخصية» التي تسند كل واحد وواحدة من هؤلاء الإخوان والأخوات وتجعل مسارهم مساراً بشرياً يضمّ إلى جانب الصلابة الايديولوجية هشاشةَ الروح والجسد؟

أعرفُهم أمْ لا أعرفُهم؟

لا يكفي أن أُلملم خيوطاً ونُتَفاً منْ ما أعرفه أو أسمعه عن بعضهم لأرسم ملامح مناضلين ومنضوين إلى الحزب وهم

يستقبلون عهداً جديداً. تَنْقُصُني تلك الحكايات الشخصية التي تنقل الأحكام والانطباعات من التعميم إلى مسالك الحميمية وقَعْر المرايا. مشروع مُؤَجل وعلي أن أكتفي بظواهر الأمور.

ومن ظواهر الأمور أن الأخ المعْتَصم جلس إلى جانبي مُبدياً حفاوةً خاصة. وكنتُ قد سمعتُ أنه اَلتحق بديوان أحد الإخوة الوزراء؛ وهو معروف بقدرته على التواصل السريع وتجميع الأخبار والعزْف على النغمة السائدة على ألسنة قادة الحزب أو المشايعين لهم. لكنه إلى جانب هذا الدور، لا يخلو من اجتهادات يريد أن يُوحي، من ورائها، أنه ليس مجرد ناقل للأصداء. وكنت استمع إليه بدون أن أحرص على إبداء رأيي في ما كان يتفوَّهُ به.

فاجأني وهو يقول:

«ثم إنه لا يجُوزُ مُطلقاً لا يجُوز، أن نبيع القرد ونضحك على من اشتراه. قيلَ إن حكومة التّناوب دخلت في القَالَب المخزني. أي قَالب وأي مَخزن؟ نحن دولة لها دستور، والسُّلط واضحة، محدَّدة؛ ثم إن التحجُّجَ بالشَّكليات لا يخدم مصلحةَ البلاد، وبُوسَة الَيد لها علاقة بخصوصيتَنا الموروثة التي تضفي روْنقاً على طقوسنا. هلَ تُوافقني أيها الأخ العزيز؟

- أحتاج إلى وقت لأفكّر في هذه الملاحظات اللوْذَعيَّة.

- ثم إنه لا يجوز قراءة الصحف الصفراء وما تنشره من أكاذيب عن بيت فخم اشتراه سفير مغربي ثم أعاد بيعه بمبلغ يفوق كثيراً ثمن الشراء ووضع الفرق في مكان مجهول. هذا اخْتلاق أليس كذلك؟

قلت : لعلك لم تقرأ ترجمةَ ما نشرتْه صحيفةٌ أمريكية شهيرة في الموضوع وهي تؤكد ما ذهبت إليه صحفنا الصفراء.

- لا يجوز. لا يجوز مطلقاً أن نُصدِّق الأجانب ونُكذِّب المسؤولين أبناء البلاد الذين أدَّوا القسم عند استلام مهامهم. متى نتخلص من عُقدة الغرب؟

تَمْتَمتُ : متى؟

تابع بنفس حماسه واندماجه في دورِ «النَّاطق باسم. . .»: ما تنجزه الحكومة ستظهر نتائجه الباهرة بعدَ سنوات وَسنوات. نحن لا نريد التغيير السطحي. وما يُقال عن المفاجآت غير السارة التي تنتظرنا في انتخابات 2002 مجرد تخمينات واهية. وحتى إذا حصلتْ فَسَيكتُبُ التاريخُ أننا جَرُؤْنَا على أن نجعل التّناوب واقعاً ملموساً. ثم إنه لا يجوز أن ننسى وعي الجماهير . . .

قاطعته : قد يكون وعيها هو ما يدفعها إلى أن تعاقب المنظمات التي لم تعرف أن تجدّد نفسها حتى لا يستعملها المستفيدون «العابرون» إلى خيمة السلطة.

- هذا كلام متياسر لا يجوز أن تردّده أيها الأخ العزيز أنت الذي أعرف عنك التأني في ما تكتب. لا يجوز مطلقاً أن نكون كوارثيينَ في توقعاتنا وتحليلاتنا. ثم إنه لا يجوز القول بأن هناك غموَضَاً في المشاورات والتعيينات، نحن واضحون وضوح هلال رمضان.

قاطعته : يا عزيزي المعتصم أنا لَمْ أطرح عليك أسئلة ولستُ مغرماً بالدخول في خصومات كلامية تتصل بمسائل أحسني بعيداً عنها .

- لا ، لا يجوز أن تتفوَّه بمثل هذا الكلام ، لأن المثل يقول «يدك منك ولو كانت مجذامة» . وأنا أعرف أنك ممّن انضموا إلى حزبنا منذ 1959 حين تخلّصنا . . .

- ولنفرض . هذا لا يمنع أن أتحفظ على قرارات لم أشارك فيها أو بالأحرى لم أكن أتوقع أن تتمّ بهذه الطريقة الفوقية التي تجمد أكثر من ثلثي مناضلي الحزب . نحن لا نلتزم في حزب من المهد إلى اللّحد . وما أقوله ليس اختْلاقاً لأن الناس تتحدث عنه وهو جزء من هذه الفترة التي سيكون لها امتدادات وعواقب .

- هذا احتمال . لكن لا يَجُوزُ القولُ بأن الأغلبية لا تجد نفسها في ما تنجزه الحكومة الجديدة . . .

- يجوز أو لا يجوز سيّان عندي . أنا عشتُ وقائع وأحداثاً منذ 1963 ، ولم أكتب عنها لأن منطق «لا يجوز القول بأن . . . » كان يُلجمنا . غير أن الأيام تؤكد أن ذُيُول ذلك المسكوت عنه ما تزال تعوق المحاسبة وتَصفية الأخطاء القاتلة .

- اسمح لي مرة أخرى ، أن أقول لك بأنه لا يجوز أن نُسرِّبَ أسرارنا ومتاعبنا إلى نصٍّ روائيّ يُحوِّل الواقعيَّ إلى تخييل فتتضخّم الوقائع .

- أنت الذي تضخم الأشياء . المسألة عندي أبسط من ما

تتصور. أنا أعتبر كل الأحداث والسلوكات مادّة خاماً، متساوية القيمة، صالحة لأن تندرج في تشكيل النّص السردي. وما نعيشه هو مزيج من كل هذا ومن أشياء أخرى تَشْغَلُني وستُدركها إذا أتيح لك أن تقرأ هذه الرواية. أنا شبه متأكد من أن ما أكتبه لن يُشخص ما أتخيَّله. وكل ما تستطيعه كلماتي هو أن تُقرِّبني من ذلك الذي أريد أن أقوله ويَنْفلت باستمرار لأنه لا يمتلك وجوداً واضحاً، مستقلاً. هو دائماً مُنحشِر وسط أدغال من الصور والمشاعر والأفكار المتنافرة، المتراكب. . .

لم أرد أن أقول للمعتصم بأن ما أشاهده اليوم كنت أتوقعه منذ سنوات طويلة وأنا أعيش مشاهد من أزمة الحزب مُعْربةً عن نفسها بلا وسائط ولا استعارات. وبدأت أقتنع، مع الأيام، بأن ما سيحدث لن يكون بالضرورة كارثة، بل هو نوع من الحلّ تفرضه غريزةُ البقاء بعد أن يعجز الفاعلون عن التحكم في توجيه مسار العلائق. لم يكن المعتصم يحضر معنا تلك الاجتماعات الطويلة، المملّة، ولم يكن يستمع إلى تدخلات تكرر وتعيد كلاماً أبعد ما يكون عن مقتضيات الوقت ومتطلبات تجديد الفعل والتحليل. ولم أكن أدرك سبب ذلك العَطَل الذي كان يجعلني أنظر إلى وجوه إخواني فأجدها أشبه بساعات توقفت عن الحركة رغم أن الظروف كانت مسعفة على قَلْب التربة وتوسيع الإشعاع. كنتُ أستسلم ساعات للتفكير في تلك الوضعية التي تُفْضي إلى شَلَل غير مُبرَّر وإلى غياب للتواصل يتمثل

في الاحتماء وراء حوارات جاهزة ووراء استحضار عبارات سالكة تُدين الحكم الفردي وَوُزراءَه الدّمى . . .

الآن فقط، أقرأ وأسمع بعض قادة الحزب يقولون، من فوق كراسيهم، بأن سبب أزمة منظمتنا هو تبَرْجُزنا. ليس هناك تحديد لمنْ يعود عليهم ضمير الجماعة، وليس هناك توصيف لهذا التبرجز ولا تعيين لبداياته. سبحان الله! هل ذلك التبرجُر قد نَزَلَ هكذا فجأة من سماء واطئة؟ أم أننا أغمضنا العين وفتحناها بين يوم وليلة فوجدنا أن كل شيء تغير وهو ما دفع مناضلي الأمس إلى الاستقالة أو التفرّج أو الاندماج السريع في طقوس السلطة وانشغالات الحكم؟ لماذا لم يقولوها من قبل؟ هل كان اعتلاء سدة الحكومة شرطاً ليدركوا أنَّ سرَّ الأزمة المخيِّمة منذ سنوات، إنما هو كامنٌ في تَبَرْجُز كان مرتدياً طاقية الإخفاء؟ وهل هذه هي الكلمة الملائمة لتشخيص الدَّاء؟

وقد يكون التبرجز هو الوصف الملائم لو افترضنا أن الحزب لم يَعُد يشتمل على العمال والفلاحين الصِّغار والفئات المتوسطة والمستضعَفَة . . . وهم، مثل الأغلبية، يلهثون وراء لُقْمة العيش في فترة اشتعال الأثمنة وانفتاح السوق على الخَصْخَصَة. لو افترضنا أن الحزب أصبح يوجد بدون هذه الفئات، لأمكن عندئذ أن نتحدث عن فئات قيادية وإدارية تبرجزتْ. ليت القائد الحصيف تَمَهَّلَ قبل أن يُدليَ برأيه لتلك الصحيفة الدولية. لَيْته استنجد

بالناطق ذي اللسان الذَّرب، لَكَانَ أفْتَى عليه بتصريح يقول: «... إننا جزء من مجتمع تخترفه أزمة عالمية لا تُوقِّرُ أحداً، غير أن النية معقودة لمجاوَزة جميع هذه المشكلات خلال المؤتمر المقبل!».

ثم هل المفروض أن يعيش المناضلون طوال حياتهم وهم على الحديدة لا يمتلكون بيوتاً وسيارات وملابس أنيقة؟ لعل التعبير غير مُوفق، لعله يخفي تشخيصاً آخر لا أحد يجرؤ، الآن، على الجَهْر به. الدقّة غير مهمّة، وعلى جميع المناضلين أن يقتنعوا بأن لُبَّ المعضلة هو التَّبرجز! والحلُّ؟ العودة إلى صوفية النضال! حل سحري، من بُكره إن شاء الله.

استأذنتُ من المعتصم لأتحدّث مع إخوان آخرين أحسست أن عليّ أن أبادلهم كلمات تُطمئنهم وتشعرهم بأنهم رأس الحرْبَة في معركة طويلة تستدعي المثابرة والاستقرار وَطُولَ البال. كنتَ أستمع إليهم وهم يجهدون في أن تأتي حججهم وتحليلاتهم متماسكة، ومعجم كلماتهم الجديد يتأرجح بين سجلات عديدة، لكنني لم أكن أملك أمام حماسهم سوى أن أهزَّ رأسي موافقاً مُتمتماً: طبعاً، طبعاً، لا شك. مفهوم...

تبقى نظراتهم وحركاتهم وابتساماتهم واتّزان النغمة: إنها تحمل دلالات يصعب عليّ أن أنفذ إلى ما وراءها خلال هذه السهرة التي تتدثر بغلائل زئبقية. هي تُؤَشِّر على مُتغيّرات، وفي الآن نفسه تحرص على الإيهام بأن الإخوان داخل الحكومة أو خارجها هم

دائماً «ذاتٌ واحدة». وحتى تلك الثنائية التنظيمية التي طالما استوقفت الجميع وأضحت جزءاً من التعاقد غير المكتوب داخل الحزب، أصبحت اليوم تميل إلى التّلاشي إذْ لم تعد هناك ضرورة للحفاظ على الذين يُعبؤن ويواجهون السلطة، مُقابل الذين يقودون ويتفَاوضون. نحن، الآن، بحاجة إلى كفاءات تُدبِّر المرافق العامة وتعتمد على الدراسات والإحصاءات لتُقنع بالأرقام الملموسة أفواج الناخبين وجيوب المستثمرين والسَائحين. الأشياء واضحة غير اللي ما بْغَاش يفهم. هناك الثوابت التي يجب أن تظل موضع إجماع وهناك الاجتهادات التي تُبرر الاختلاف وتتيح للكفاءات أن تتفوّق. ما عدا ذلك وَهْم وأحلام طفولة لا تتناسب مع سنّ الرُّشد. هناك ما يجوز وما لا يجوز.

أعرفهم أم لا أعرفهم؟ حتى هذا السؤال فَقَدَ دلالته في آخر السهرة.

حين ركبتُ إلى جانب مصلح ضغط على زرٍّ المذياع فانبعثتْ أغنية قديمة :

بين البارحْ واليومْ ليلة يا ما احلاها
فَيها الغرام مظلوم وعُمري ماحا انْساها

ووجدتُه ينطلق في ضحكة قوية من الأعماق. بعد قليل قال لي : لا تُؤَاخذني فقد كنتُ بحاجة إلى مثل هذه الضحكة.

طوال الطريق لم نقل شيئا. كان الصمت يَشِعٌّ بإضاءات

تتوهّج عبر مشاهد متداخلة بين ما رأيتُه تلك الليلة وما اختزَنَتْهُ الذاكرةُ منذ عقود. بين البارحة واليوم أشياء كثيرة تغيّرت خلسةً أو علانية وربما لَمْ ألتقطها في حينها. ومثل مناسبة هذا العشاء تُبْرزُ تضاريس تلتحفُ بالكتمان.

عندما أوصلني مُصْلح إلى باب العمارة التي أسكنُ بها ضغط على يدي وهو يقول : دَعْنَا نراك. وكان صوتُه قد استعاد غلالة الكآبة التي جلَّلَتْه في السنوات الأخيرة. أما أنا فقد خُيِّلَ إليّ أن هواجس الغُرْبة والوحدة بدأتْ تَلفُّني من جديد.

.3.

«أنْ نُضيءَ الحياةَ منْ جِهَةِ احْتضَارِها»

أ. أَرطو

«سيطول بك الانتظار، إذن، ولن يتغيَّر شيء. أنا هنا داخل الوطن، أُحس أنني لن أستطيع بَعْد أن أنسجم مع الناس. ما منْ لغة مشتركة بيني وبينهم. لا أستطيع أن أُؤَجِّل حياتي إلى ما بعد. أهْوَنُ عليَّ أن أمتطي صَهْوةَ الجنون أو أن أرتاد السجن، منَ أن أستمرّ هكذا أعيشُ بالتّقسيط كما تفعلون...»

ف. ب

في «لعبة النِّسيان»

أذكر أن زيارتي الثانية لـ: ف. ب، كانت عند أصيل أحد أيام يوليو. كنت وحدي هذه المرة. تسلّلتُ إلى العمارة وصعدت إلى الطابق الرابع ونَقَرتُ على الباب ثلاث نقرات متساوية . . .

في ردائها الأبيض والشريط البنفسجي يتخلّل شعرها عند وسط الرأس، كانت تبدو متنائية عن هذا العالم كأنها جزيرة وسط محيط صاخب. كأنها، وهي تُحدّق، لا ترى ما هو مُلامِسٌ لبصرها.

كنتُ أُحس بصخب عارم يملأ جوانحي وأنا أستحضر كلّ ما يلاحقني من أسئلة مأزقيّة وألغاز تستعصي على الفهم واللغة طالما أرجأتُها بدعوى أنني ما أزال مشدوداً إلى الأشياء والناس، وَهُوَ ما يحول بيني وبين التفكير بجذرية في ما يسائلني . . . بينما هي، ف. ب، ومنذ اللقاء الأوّل، تبدُو قادرة على النفاذ إلى صُلْب الكائنات وقادرة على أن تقول ما يمكن أن يُبَدِّد قسطاً وافراً منَ حيرتي. لكنها ترفض أن تغادر تلك الجزيرة التي تتحصّنُ داخلها عندما تُخاطبني مُفْضيةً إليَّ بتأملاتها في شُحٍّ بالغ. أكثر منْ مرة حاولتُ اجْتذَابَها إلى اللجَّة الصخَّابة من الظواهر والأحداث فتظل متمسكة، من وراء ابتسامة تُجَلِّلها ظلالُ سخرية خفيفة، بتلك النظرة التي تتخلُّلها كلماتٌ لا تخلو من التباس، معرضة عن التفاصيل حيناً، وساردة بعضها بتباعد وبرودة، حيناً آخر.

وهذه مسافة تُقلقني لأنها تُلْغِيني بشكل ما، رغم أن الحوار

واللقاء يُكهْربان جوانحي ويُعيدانَني إلى برهات الخُلوة ومُناجاة النفس بعيداً عن كل الاعتبارات.

كنت قد تعودتُ على صمتها الذي كثيراً ما يمتدُّ بين مقطع وآخر من حديثنا، فاكتفيتُ بالاستفسار عن صحتها، وأشارت هي إلى أن سنةً كاملة كادت تنقضي مُنْذُ زيارتي الأولى. بعد قليل أخبرتني أنها تنتظر زيارة خادمتها السابقة «الضَّاوية» التي تَحوَّل اسمُها إلى «أضواء». ابتسمتُ مستفسراً، فقالت لي بأن حكايتها طريفة قد تُفيدُني في قصصي. الضاوية من أسرة فلاحية بسوق الأربعاء تشتغل عَند العائلة منذ سبع سنوات. وعندما عادت فَ. ب من باريس بعد طلاقها ومرضها، أصبحت الضاوية هي صلة الوصل بينها وبين العائلة بالطابق الثالث. هي التي تُنظف الغرفة وتأتي بالطعام وتحكي لها عن أخبار زوجة الأب وعن الأخوة والعمَّات والخالات. أضافت:

«وجدتُ فيها مُسامرَةً تُبدِّد سأمي عندما تشتدُّ وطأة الوحدة على نفسي. وهي، تعلَّقتْ بي ولم تصدّق ما كانت عائلتي تُشيعُهُ عن حُمقي. كنتُ أستمع إليها وأستفسرها عن طفولتها وبلدَتها وكأنني أتحدث إلى صديقة، وكانت تحكي لي عن أهلها وأجْواء سوق الأربعاء بتلقائية وروح مرحة. وعندما أطلعتُها على بعض صوري التي أُخذتْ لي أثناء إقامتي بباريس زاد تعلُّقُها بي وكانت تصيح مُنْبهِرَة وهي تراني في تلك الصور مُرتَدِيةً الفساتين والتَّيُورات والشُّورتْ والقُبَّعات المختلفة الأشكال؛ وأحياناً وأنا في

حلبة الرقص. تنظر إليَّ ثم تنظر إلى الصور وهي لا تكاد تُصدق أنَّ الوديعةَ التي تجلس أمامها باهتةً، ساهيةً باستمرار، هي تلك العفريتة ذات النظرات المُقْتَحِمة والأزياء الجسورة التي تبدو في الصور . . .

لم تُمْضِ الضاوية أكثر من ثلاث سنوات بالمدرسة الابتدائية ثم أوْقفها أبوهاَ عن التعليم وجعل يُشَغِّلها في البيوتات ليستعين بأُجرتها الضئيلة على مصاعب الجفاف وَسُوء معاملة الفلاّحين الكبار . . . وعندما جاءت إلى الدار البيضاَء كانت تَتَخايل للمُراهَقَة وبدأت تكتشف، بسذاجة، بعضَ أسرار الجنس والإغواءات الذكورية. أنتَ تعرف تلك العلاقة المرائية بين الخادمات البدويات والعائلات الكبرى: التَّمسكن والخجل المصطنع مقابل الأوامر والتَّعليقات الساخرة من مجموع أفراد العائلة. وسرعان ما ضاقت الضاوية بهذه المعاملة التي تَحرُمها من أنْ تعيش مُراهقتَها وتضطرها إلى التكتُّم واصطناع البراءة حتى عندما تستسلم للأحلام! وأنا كنت طبيعية في معاملتي لها. صحيح أنني وجدتُ نفسي لأول مرة أمام فتاة من غير طبقتي، غير مُتَعلِّمة إلاَّ أنها تفيضُ حيوية وجمالاً وتريد أن تقترب من تلك الأسرار التي تعطي للحياة نكهة وجاذبية. ثم إنني كنتُ بحاجة إلى مَنْ يُبعدني عن جحيمي الخاص. كُنَّا نُمْضي ساعات في الحديث أستمع أنا إليها، وتُنصت باهتمام إلى ما أقوله لها. ولم يكن لديَّ حرّصٌ على أن «أُثَقِّفَها». نَسيتُ تطلُّعاتي إلى تغيير شروط المرأة المَغربية

وَفْقَ تصورات وتحليلات متماسكة. وجدتُني أعيشُ التجربة من موقع آخر: أنا التي قرأتُ الكثير عن حركات تحرير المرأة في العالم، وحضرتُ تظاهرات ربيع 1968 بالسوربون، وغامرتُ بجسدي وروحي بحثاً عن مَصير أكثر حريةً، وهي الخادمة المحرومة من طفولتها، الخاضعة لإمْرَة أفراد العائلة ونَزَوَاتهم، التي يقول لها جسدُها وغريزتُها بأن فيَ هذَا الكون ما يستحقَ الحياة . . . وجهاً لوجه كنتُ مع الضاوية ذات البَشَرة الخمرية والجسد الملفوف في استدارات تَستهوي البصر. وعندما كانت تحكي لي عن البقَّال الذي يغازلها ويقترح عليها أن يختلي بها في الردِّهة الموجودة داخل دكانه، كنتُ أكتفي بأن أنبهها إلى أن عليها أنْ تتأكد من أنه يحبها. ثم أستفسرها عما إذا كانت هي متعلقة به، فتكتفي بأن تقول لي بأنه يجذبها مثل كلِّ الرجال.

تمضي أيام ثم تأتي الضاوية لتحدثني عن شاب متعلم، له شاربٌ كثٌّ ويملك مُوتُوسيكلاً ويجيد الغزل. أنظر إليها مبتسمة فتضيف بأنه يريد أن يأخذها في جولة إلى عين الذياب، لكنها لا تستطيع أن تخرج في المساء. أفهم أنا قَصْدَها وأعدُها بأن أكتب ورقة للعائلة أُخبر بأنها ستُمضي الليلة معي. هكذا وجدتُني أُسهِّل لها خرجاتها المسائية للالتقاء بصديقها الذي سرعان ما استولى على حواسِّها ومخيلتها. وكنت أشعر بتغيرات الضاوية من خلال ما كانت تنقُله إليَّ عن سهراتها مع ذلك الصديق الذي توغَّا في جسدها مثلما أثَّر على فكرها. أصبحت لا تُطيق أوامر زوجة أبي

وتتبرَّمُ من حياتها كخادمة، بينما هناك مَنْ يركع عند جسدها الفتيِّ ويُمْطرها بالمديح والوعود.

وجاءت ذات يوم لتقول لي أنها ستتزوج من ذلك الشاب وأنها ستخبر والدَها. سألتها عن عمله فقالت بأنَّهُ يشتغل مع السوَّاح وأن ما يربحه كثير. أدركتُ أنها تُخفي عني حقيقة الأمر. أخذتُ أعاتبها فارتمت عليَّ وأخذت تقبلني والدموع تملأ عينيها. ووعدتني بأنها ستأتي لزيارتي كل أسبوع وأنها ستخبرني بأشياء لم يتَّسع الوقت لإخباري بها. أعطيتها بعض فساتيني وتمنيتُ لها حياة أفضل.

مرّ شهران قبل أن تأتي الضاوية لزيارتي. ووجدتها امرأةً في حُلَّة جديدة : فستان يُظْهر مفاتنها، ومساحيق تُبرز تناسق ملامحها لشعر خارج للتوِّ من عندَ الحلاق، وهي واثقة من نفسها تُحَدّثني بلغة ختلفة. وفي ذلك اللقاء لم تُراوغ. أخبرتني أن زوجها الشاب وْقعها في شرك الدعارة بعد أن أقنعها بأنها السبيل الوحيد ليعيشا في فاهية ونعيم. وهي الآن تعيش في كَنَف قَوَّادة محترمة لها فيللا تردّد عليها كبارُ القوم والباحثون عن اللذَة ليختاروا من بين البنات لوافدات على المبْغَى السرّي من جميع أنحاء المغرب. هناك تلتقي نات الشَّاوية وبني عروس وبنات الغَرب وخنيفرة والفاسيات المراكشيات : كأنهن يُجسِّدّن الوحدة الوطنية. تحكي وتضحك. نظر إليَّ فلا أُبّدي اعتراضاً على ما تحكيه. تسألني عن رأيي في جربتها فأكتفي بالقول إن المهمّ هو أن تكون مرتاحة في مهنتها

الجديدة. تعودتُ على زيارتها. أحسّ نوعاً من التواطؤ معها. أستمع إليها وهي تحكي لي عن نزوات الزبائن ودَلالهم. وعن بعض الغرائب التي تحصل لها معهم. وعن زميلاتها في المهنة وخُصوماتهن. وجدتُني أعيش من خلالها، بعض وقائع هذه المدينة التي أعيش فيها منزوية رافضة الانغمار في تفاصيلها اليومية . . .».

بعد فترة صمت قصيرة، سُمعتْ نقرات على الباب. أشارت ف. ب إلى أن الضاوية قد وصلت. كانت، فعلاً، جميلة ومثيرة للشهوة. جسد ضاجّ يختزن نكهةَ الحنْطَة وفتنة سُهول الغرب؛ وابتسامة تلقائية تهزم كلَّ رَزَانة أو تَعقُّل. قالت ف. ب وهي تُمسك بذراع الضّاوية:

- ما رأيك في «أضواء» الجميلة؟

تملّصت الضاوية من يدها وهي تقول بخجل مصطنع:

- ويلي ويلي أمْعَلَّمْتي، حشّمتني مع الأستاذ.

ولاحظتُ أن الكآبة غادرتْ مَلامح ف. ب لِتَحُلَّ محلّها تعابير المرح والاستئناس. قالت لها بعد قليل:

- الأستاذ ينتظرك لتَحكينَ له عن بعض طرائف زُبنائك.

ردّت بنفس الخجل المصطنع: حشّمْتني أمعلمتي.

ثم استأذنت في أن تُدخِّن سيجارَة وأخذت تحكي لنا عن مغامراتها مع «مسيو التهامي» الذي اختارها في الليلة الماضية لتسهر معه في شقّته الفخمة بشارع الجيش الملكي. رجل الله يعمرها دار، ظريف. (أخذت تضحك وتضع يدها على فمها) ثم تابعت: المهم،

من بعد ما شربنا شي كْويسَات بْدَا تيقول لي : ألالّة أضواء، الفلوس ما شي مهمين، نبغيكَ تعيشي معايا قَلْباً وقالباً (تنطق الكلمتين الأخيرتين مقلدةً اللهجة الفاسية لمسيو التهامي). أنا هَزَّة من بطنك هي الدنيا وما فيها . . . » بعد ذلك طلب منها أن تنتظر لحظة ودخل إلى الحمام حيث خلع ملابسه وخرج عارياً بكرشه المكوَّرة وساقيْه النحيفتين وجرى نحو الفراش مُرْتمياً عليه وهو يصيح : «ها أنا ألالّة أضواء زْبيطة كيف خَلْقتني أميمْتي. عملي بيا ما بْغيتي».

سألناها : وماذا صنعت به؟

– هَرِّيتُو، دَغْدَغْتُه، َجا هُوَ بقى يضحك وَيْفَرّكَل وعجبه الحال. ولما بَسْتُه قال ذاك الشي اللي تتقولو الأغنية : قبلتِ خَدِّي فلا تبخلي على ما تحت سُرَّتي!

في غمرة ضحكنا، وقفتْ «أضواء» مستأذنة وهي تطلب مني أن أهتم بلالّة ف. ب لأنها معلمتها وأمها وصديقتها وأختها الغالية على نفسها. ثم نظرتْ نحو ف. ب كأنها تريد أن تقول لها بأنها الآن تعرف ذلك الفارس الذي كانت تُخفيه عنها!

كانت الضاوية جد طبيعية في حركاتها وتعليقاتها المرحة وكأنها فتاة تودِّع أبويْها لتذهب إلى موعد غرام، والأم قلقة بعض الشيء لأنها لم تتعرف بعد على الشاب المحظوظ الذي اختارته ابنتها.

بعد مقطع الصمت المعتاد، استعاد وَجْهُ ف. ب سمْتَ الرزانة والوقار. قالت كأنها تُحدث نفسها :

«أعيش حالةَ خوف من خلال الضاوية. أخشى عليها من السجن، من اعتداء يُشوه ملامحها، من أنْ تَستسلم للكحول والمخدِّرات. هي تُطمئنني وتُبدي ذكاءً في فَهْم الوسط الذي أصبحت تعيشْ فيه، لكنني أعرف أن المتحكمين فيه هم الأقوى ولهم قوانين تخضع للربح ولا تتردّد في اسْتنْزَاف حيوات اللاّتي يَقَعْنَ في شَرَكهم؟ هل كان بإمكاني أن أمنعَها من أن تسلكَ تلك الطريق؟ أنا ظننتُ أنني أساعدها على أن تعيش تجربة اكتشاف الحياة بنفسها. لست من النوع الذي يتبرع بإبْداء النصائح والتحذيرات. وما كان باستطاعتي أن أُفشيَ سرَّها لوالدي عندما تبينتُ أن الأمور أخذت مجرى منزلقاً. لا أظن أننا نملك وسيلة لمنع التحولات الملتصقة بسيرورة الحياة. توجيهها صوب «الأفضل» مسألة أخرى، خاصة داخل هذه الجزر الاجتماعية المتفاوتة التي تعيش بسُرعات متباينة.

طبعاً، لم تكن هذه هي الصورة التي أتخيلَها عن مشاركتي في تغيير أحوال النساء عندما كنت بباريس مُساهمة في الندوات وصياغة البيانات. الآن، أدرك أن التجربة ضرورَية لكل واحدة، لكل واحد، لملامسة العنف الممتزج بالوجود، ولِتَعَلُّم التعبير عن الرفض وعن التطلُّعات.

كنتُ أتكلم عن تحرير المرأة من خلال نماذج جاهزة، من خلال استعارات تمتصٍ بشاعةَ الحقائق وبؤس التفاصيل. لعلك تذكر صرخة أحد الصديقيْن في مسرحية نتالي ساروت «منْ أجل نعم، من أجل لا» وهو يقول ما معناه : «نتكلم عن السعادة من خلال الاستعارات،

كفَى لُجُوءً إلى الاستعارة، أريد شيئا ملموساً. غير أنني أمام الملموس أبدو بدون بَوْصَلَة. ماذا نستطيع أن نفعل بالملموس لتبديد بؤس حقيقي، مُتجذّر؟».

بعد صمت قصير، استأنفتْ:

«لا أُقرُّ بأنني حققتُ تغييراً قَصدياً في رحلتي الحياتية. كأنما سرتُ باتجَاه أُفق كان مرسوماً، منذ البدء، في ذاكرتي وحواسي وجسدي. لم أكن أعرف التفاصيل، إلاَّ أن طيَّ تلك المسافة من مساري التي تبدو لي الآن، طويلة، جعلني أُدرك أنّ لا شيء تغيَّر وَفْق ما كنتُ أؤمل وأحلم. الجديد، المفاجىء، هي لحظات العنف التي غيَّرتْ كياني وجعلَتْني أشعر بأنني مختلفة عن الأخريات والآخرين وأنا أجري في باريس وراء حرّيتي. لم أكن معصوبة العينيْن. كان لي وَعْيٌ ومنطق وحماس. لكن يبدو أن ذلك لا يكفي، فما الذي أحدث شرخاً غائراً في الوجْدان والمشاعر؟ هل هي عودة المكبوت التي فَصَلَتْني عن الجذور المَوروثة لتُلْقي بي وسط دوّامة مغامرة مفتوحة على المجهول؟ أم هو طيف الواقع الذي تُواريه اندفاعةُ الطوبوية زَمَناً عن أعيننا، يَعُودُ لينتقم من غرارتنا في نهاية المطاف؟

أُحسُّني، أحْياناً، في منتهى النشوة والرَّوْق وأنا أتَماهى مع ما حولي: السطح المكلّس بجير ناصع البياض، تينُ الصبَّار على قارعة الطريق يرشُّه البائع بالمَاء، القطُّ المزركش بجوار نافذتي يتطلَّع إلى ديك يَعْبُر الإفريز مختالاً، وهبَّات الريح حاملة رائحة الحديد

الهالك، الصَّدىء، وأصوات الباعة وَالأطفال والكْلاكْسَات . أنغمر في كثافة هذا اليوميّ المشْبِع فلا أعود أتذكَّر ما عَدَاهُ» .

تعود ف. ب إلى صمتها وأتابع أنا الإنصات إلى ما يضجُّ في أعماقي غير مُصدِّق ما أراه وما أسمعه . إنها غير غريبة عني لكنني أتطلع إلى أن أعرف عنها أكثر . وفي نفس الوقت لا أجسر على أن أطرح عليها أسئلة مُحدَّدة .

عندما استأنفتْ كلامها ، بدا لي أنها تريد أنْ تحكي أكثر عن جوانب أخرى من حياتها . كان تساؤلها مُعلناً عن ذلك :

«كيف أستمر مقتنعة بتصوراتي وأفكاري وسط محيط يُعْدم الطموحات؟

ذلك هو السؤال الذي كان يواجهني كلما قطعتُ شوطاً من مساري . كان تجريب الحالات القُصْوَى وَسيلةً من وسائلي لأنه مرتبط بمغامرة الحرية . وكان النضال وسيلة أخرى لأن التغيير يقتضي مدَّ الجَسور وخلقَ مُناخ مُغاير . لكن الوسيلتيْن معاً لهما سَقْفٌ وحدود . تبقى الكتابة التي تُعطينا ، ربما ، وَهْمَ الانعتاق ولاَمُنْتَهائية التحقُّق . إلاَّ أنني اكتشفتُ قُدرتها متأخرة . وعندما حاولتُ كانت الدُّودة قد توغَّلتْ في الخلايا لتعطِّلها . لعل ذلك هو ما حبَّبَ إليَّ أن أُحَادثك ، أنْ أحكي لك وأن استمع إليك بدون هدف مُنتظَر . لديَّ وَهْمٌ ، بعد قراءَة «لعبة النسيان» أن هناك مَنْ يستطيع أن يساكنني في فضاءاتي وأنني لستُ واحدة لا ثانيَ لها ، كما كنتُ أعتبر نفسي إلى بداية الثمانينات . وقد تستغرب من قصة

زواجي في مطلع 1980 . فعندما التقيتُ جليل الذي كان يُنْهي تخصصه الطبي، كنت مُتْعَبة مُعْرضةً عن الحياة التي عشتها من قبل. قد أقول بأنني لم أعد أحبّ نفسي. كانت الأشياء الكثيرة التي عشتها تبدو مختلطة تُكوِّن ما يُشبه غلائل حَاجبَة للرؤية. ووجدتُ عند جليل استقراراً داخلياً فوجئتُ به. كأنه، في تفكيره وتصرفاته سيعيشْ ألف سنة. كان من بيئة مغايرة لبيئتي لأنَّ أسرته من الراشدية وأبوه تزوج من ثلاث نساء وأنجب صبيةً وصبايا عديدين، ولعلي فتنتُه بجُرأتي وتَطَلُّعي الدائم إلى أشياء غير قائمة في واقع الحال. كنت قد جاوزت مرحلة المغامرات العابرة، وكان هو أيضاً يبحثْ عن الاستقرار. وولَّدتْ علاقتُنا منطقةً مشتركة تقوم على توازنات بين الأضداد وعلى عاطفة مشبوبة رغم كل شيء. عندما عرض عليَّ الزواج والعيش معه في مسقط رأسه «الراشدية» ببَيْت عائلته الكبير، انجذبتُ إلى التجربة وإلى تلك الفضاءات التي أَجهل طقوسها وسَنَنَها. الأهمّ هو أنَّ جليل متعلق بي وأنني في حاجة إلى اخْتبار قُدرتي على العيش وَسَطَ مُجْتَمعي. خلال سنة من الحياة الزوجية، تقلَّص رصيدي من الحب والرغبة في الاكتشاف والقدرة على التَّعايُش مع أهل زوجي في تلك الدار الكبيرة الضَّاجَّة بالصبية والصبيان والزوجات والعمّات والخالات والأخوال. بقَدْر ما كنتُ أتقوقع وأنطوي على نفسي، بقدر ما كان جليل يتمازَج مَع عائلته ويَتَنَاغَم مع محيطه : يتردَّد على السوق الأسبوعية كل خميس، يحضر في الأفراح والمناسبات التي يُسْتَدعَى إليها، يحرص على

صلاة الجمعة، يشارك في سهرات نادي القضاة والمحامين. كنتُ أعرف أن وضعه كطبيب له عيادة خاصة يقتضي مُسايَرة المواضعات، إلاّ أنني تبيَّنتُ مع الأيام، أنه سعيد في أعماقه بذلك التناغم الاجتماعي الذي لَمْ يَعُدْ يترك له وقتاً لنفسه أو لزوجته الباحثة عن صيغة ملائمة للحياة في وسط جديد. كان يكتفي بأن يَحُضَّني على أن أندمج بالعائلة وبالناس، وبأن أنْخَرط في مشروع يتيح لَلآخرين أن يُفيدوا منْ ثقافتي. وفي كلِّ مرّة يُلمح إلى الإنجاب؛ كأن الدكتور جليل لَيس هو ذلك الذي عاش سبع سنوات بباريس. تلك مرحلة قد انطوتْ وما يحفزه هو الانغراس أعمق فأعمق وسط بيئته وبلدته. لكني، أنا، كنتُ أواجه ذاكرتي التي تستيقظ. كانت تَنْثَالُ عليَّ المشاهد التي انطبعت في المخيلة، والصفحات والأفكار العالقة بالذهن، وتطريزات الفضاءات التي حلمتُ بها. أدركْتُ أنني لا أستطيع أن أتحوّل إلى امرأة تَعيش كالخُلْد: تَحْفر جَحْرَها وتكنُّ على بَعْلها. الحياة، كما ترسّبت صورتها عندي، مقترنة دوماً بالحركة الجذَّابة والاستكشاف اللاَّينتهي واللألاء المُعْشي للبصر.

وبعد ليال من العَذاب والحوار، أقْنَعْتُ د. جليل بأن نفترق لأن أشياء كثيرة تَحُولُ دون أن نعيشْ متكامليْن، خاصة وأنني أصبحت نشازا وسط عائلته الكبيرة التي كان هو مرتبطاً بها حدَّ الذَّوَبان.

عدتُ إلى باريس. لكن، قبل ذلك مررت بالرباط وقابلت

الهادي وتحدثنا كثيراً دون أن أخبره عن تجربة زواجي التي استمرّتْ سنة ونصف. ألهذا السبب لم تُشر إليها في روايتك؟ (اكتفيتُ بالابتسام وتحريك رأسي وأصبعي لأنْفي ما تقول). في تلك الزيارة، كان الهادي يبدو بدون حماس، كَثير التساؤلات، يسْهُو ويتنهّد ويستمع أكثر ممَّا يتكلم. كان نوع من الحنان الدافىء ينبعث من كلماته ونظراته إليّ، ولم يكن يريد أن يتظاهر بشيء. كأننا كُنَّا نُحافظ على نَصاعة تلك المغامرة التي عشناها في نهاية الستينات. قال إنه يريد أن يراني مرة أخرى فاعتذرت لأنني مضطرة إلى العودة إلى باريس بأسرع ما يمكن وأنني سأخبره بزيارتي المقبلة إلى الرباط.

هل هو النسيان الذي يُسعفنا على أن نَقيسَ التبدُّلات الطارئة على النفس، وعلى أن نلتقط الإشارات قبل أن تُعْرِب عن نفسها بالكلمات؟

في باريس، انتابتني حالات سأم وفسولة ونُفور من الفضاءات التي عشتُ فيها مزْهوَّةً متألقة، «خفيفة الفَخذيْن» كما يقول الفرنسيون . . . مُعْظَمُ الذين عرفتهم رحلوا. والفَرنسيون ينسجون وَهْمَ التَّغيير من خلال خطابات ووُعود الزعيم الاشتراكي الذي حمل وردةً حمراء واتَّجه صوْب بوابة البانتيون بابتسامته الماكرة وخَلْفَه قلوب الملايين. لم يَعُدْ هناك مكان يسعُني. حلقات انفصمتْ داخلي ولا شيء يُوقظُ الشَّهوة في جسدي أوْ يستثير عقلي. تفكّكت روابطي بما حولي. أثقلت الوحدةُ أرجاءَ نفسي.

كنتُ أسير ساعات مديدة على قدميَّ متنقلة بين ضفاف «السين» وعبر الشوارع الواسعة والضيقة، وداخل الحدائق؛ لكن عتمة متكاثفة تُظَلِّل كياني يوماً بعد يوم. زرتُ طبيباً نفسانياً أمدَّني بالأدوية والحبوب المهدئة، إلاّ أنني كنتُ أُحس أنني أتوغل في سراديب لا مَنْفَذَ لها. إنْتَابَنِي الخوف ولم أعُدْ أملك قدرةً على المقاومة.

استبدتْ بي فكرة الاختلاء بنفسي والبحث عن ذلك العطب المفاجىء الذي حوَّلني إلى جثة تطفو فوق أديم الحياة. الخلوة، الاختلاء، خُلوُّ البَال، الانعزال؛ كلها كلمات كانت تحاصرني وأنا أسعى إلى أن أستعيد شَرِيطَ ما عشتُه متباعدة عن الأحداث لأتمكن من أن أعزل تلك السنوات والأيام واللحظات الحافلة، الضَّاجة، من سيْرورة الحركة وهمومها المستمرة. من ثمَّ سعيتُ إلى الحصول على شهادة طبيَّة تتيح لي الحصول على سرير بمستشفىً للأمراض العصبية والعقلية. لم أكن أؤمن «بشِفَائهم» لكنني تظاهرتُ بالأعراض التي تُبرِّر بقائي بالمستشفى.

أمضيتُ أياماً وليالي مسهَّدة، مُلاحقَةً الصُّور واللَّقطات التي كانت تَنْثَالُ على مخيلتي حاملة فصولاً ولَحظات مثيرة من حياتي. ووجدتُني في متاهات متشابكة زادت من حيرتي وعذابي. غير أنني كنتُ أفْضَلَ من حالتي وأنا أعيش مع الآخرين مُضطرةً إلى التعاطي المعتاد معهم.

بدأ المبلغ السخي الذي أمدَّني به الدكتور جليل عند طلاقنا، يتضاءل بسرعة. عندئذ اضطررت إلى أن أُخبر والدي بحالتي

المرضية ليهيء لي إقامةً بالبيضاء تتيح لي الابْتِعاد عن الأسرة والأهل لأخْلد إلى التأمل والنسيان.

حضر أبي إلى باريس مفزوعاً تنبعث اللَّوعة من عينيْه. وجدت فيه ذلك الأب المتفهم الذي كَانَهُ قبل أن تموت أمي ويتزوج من امرأة فَشَّارة، مُحْدَثَة نعمة، مُتصابية. لم يصدق المسكين ما حدث لي، هو الذي كان يعتزُّ بنَبَاهَتي وتفوُّقي في الدراسة ويتفاخر بين أصدقائه بأنني أعيش مندمَجة في الأوساط الثقافية الباريسية. عندما وصل إلى المستشفى، غمرني بقبلاته مثلما كان يفعل وأنا صبية، وأمْسَكَ بيدي طوال حديثي إليه. كنتُ أحاول أن أشرح له رحلتي المُتعرِّجة وما آلتْ إليه من إحباط، وهو لا يكفُّ عن ترديد نفس الجملة بكلمات مختلفة: «بَنْتي العزيزة ما تخلقشي في الدنيا اللِّي يْخَسَّرْ لها خاطرها. اللّى بغيتيه نعملو...». أقنعني بالعودة إلى بَيْتنا بساحة ڤردان لأُقيم في هذه المعْزبة الموجودة بنفس العمارة التي تسكنها العائلة. لا أحد يزورني سَوى الخادمة، وهو يمرُّ عليَّ من حين إلى آخر ليطمئن على حالي.

في الأشهر الأولى من عودتي، سرعان ما ألفت الاعتزال والعُزلة. أرغمتُ نفسي على أن أنظر إلى الدنيا من مسَافة تُسوِّي بين الأشياء والمشاعر. ظننتُ أنني سأصل إلى فَهْم مصدر الرجَّة التي خلخلتْ كياني. لكنني اكتشفت، تدريجاً أنَ «التحول» إلى كائن مُتَعال، غير مُنْفَعل، هو ما يتيح لي الخروج من هَوْجَة الأسئلة المحمومة ويُبْعدني عَن الأوهام التي سكَنَتْني منذ مطلع الشباب.

لستُ متأكدة أنَّ هذا التحوّل قد تمَّ؛ إنه يتخايل لي في كل آن، وأنا أتطلع إليه ولا أعتبره مُتحققاً بكيفية نهائية. هو مختلفٌ عن تحولات الصوفيين. لعله أقرب إلى ما تحدّث عنه إلياس كانيتي عندما كتب عن «مهْنة الشعراء» أي ضرورة أن يحرصوا على أن تَظَلَّ جميع المنافذ والمسالك مفتوحة بين الكائنات حتى يتمكنوا من أن يصيروا أيَّ أحد آخر: الأكثر تَفَاهَةً، الأكثر سذاجةً، بل وحتى الأضعف من بين جميع المخلوقات. أظن أن كانيتي مُحقٌّ عندما يقول بأن الرغبة في إقامة تجربة مع الغَيْر، لا تستقيم إلاَّ عَندما تنبع من الداخل بدون أن تتقيَّد بنوايا النجاح أو المصداقية، وبذلك تكون حقّاً شَغَفاً في حد ذاته: شغفنا بالتحوّل. لستُ شاعرة لأطمح إلى هذا الأفق، لكنني لا أكُفُّ عن المجيء إليه عبر مسار حياتي الذي سَرَدْتُ عليك بعض محطاته.

بعد سنة من العزلة والانقطاع عن العالم وأخباره، بدأتُ أتفتح على الضاوية بدون غَرَض ولا حسابات، وفوجئت بأنها مقتنعة، رغم ظروفها الصعبة، بأن الحياة تستحق أن تعاش حتى عندما تخلو من هدف نَرْتَجيه ونسعى إليه. الضاوية رحلت لتواجه مصيرها وأنا الآن، معَ خادمَة متقدمة في السن لم تَحْك لي بَعْدُ قصتها.

لا أُحس أنني «شُفيتُ» من ذلك الشلَل الداخلي الذي جعلني أعرض عن استئناف التجربة بما هي عليه. العطب عميق، قائما ما يزال. لكنني أتلمس كُوىً صغيرة من خلالها أتحمل ما تبقَّى لي من إقامة في هذه الدنيا.

تذكرتُ صديقتي حليمة التي عاشرتُها سنوات مديدة بباريس وعشنا معاً مغامرات النضال والجسد والمعرفة. آخر مرّة التقيتها في باريس عندما كنت أستعد للعودة مع زوجي جليل. كانت هي قد أنجبت طفلاً مع مثقف عشقتْه ورفضتْ أن يتمَّ الزواج بينهما، وكانت ما تزال تعتقد بأن انخراطها في حركة «المواقفين» الرافضين لمجتمع الفُرْجَة واستلاباته المتناسلة، سيُعجِّل باشعال نيران الثورة في كل مكان. اشتقتُ إليها وأنا في عزلتي، فالتمستُ من أبي أن يطلب منها أن تزورني. كانت قد عادت إلى الدار البيضاء والتحقت بالجامعة، لكنها لم تستطع هي الآخرى أن تتآلف مع ما حولها. سكنتْ وحدها مع طفلها وتوتّرت علاقاتها مع الأسرة وتعذّر التفاهم مع زملائها في الكلية. تعيش حالات اكتئاب عُصابي تبلغ أحياناً حدَّةً عُدوانية لا تطاق. حينما تزورني وهي على تلك الحال، أجدُها شَخصاً آخر، إلاَّ أنني أتحمّل كلماتها الجارحة لأنني أعرف أنها تُحبني، مثلما أحبها؛ فهي جزء من تلك التجربة المتميزة التي عشناها بباريس رغم اختلاف طريقيْنا... لكن النتيجة لا تختلف كثيراً، فها نحن معاً داخل عنق الزُّجاجة أمام واقع يرفضنا مثلما أننا نُكابرُ في قبوله. ربما أغبطها أحياناً لأنها ما تزال تمتلك ذخيرة من التمَرد والإصرار على مواجهة الناس والجَهْر بالانتقاد. أظن أن تَعلُّقها بابنها وتجربتها السياسية هما اللذان يجعلانها تُتابع الرحلة ولا تنسحب تماماً، مثلما فعلتُ. حكَتْ لي مشاهد مؤلمة من حياتها هنا. أخَذَ الكثيرون من أصدقائها

وصديقاتها يتجنَّبونها، بل وحتى من بين أفراد أسرتها، وهي مُصرَّة على أن تقنع الجميع بأن جنونها شيء طبيعي ونتيجة منتظرة لما عاشته. ولذلك تتشبَّثُ بالحياة وسط الناس رغم نظرتهم إليها.

خلال بعض زياراتها، عندما يلفُّها الاكتئاب، تظل صامتة، ساهية لبضع ساعات فأُبادر إلى وضع شريط من الموسيقى الكلاسكية لنستسلم معاً إلى الصمت والدموع. لكنها سرعان ما تستعيد حيويتها فتعود لمواساتي محاولةً أن تمدَّ لي جسوراً تُخْرجني من عزلتي. هي التي أغرتني بقراءة «لعبة النسيان» فَظَنَنْتُ أنكَ الهادي الذي عرفته فترةً قصيرة بالرباط، وأنك آثرتَ انتحالَ اسم آخر تَنْشُرُ به روايتك. لكنني أرى الآن أنك لستَ الهادي الذي عرفتُ، وأنتَ تَنْفي التقاءك بشخص يحمل هذا الاسم وتقول إنَّ ما حكيتَه عن ف. ب هو ثمرة المخيِّلَة، ممكن. ليس لي ما أُثبت به العكس، وليس لي إلاَّ أنْ أُصدِّقك. مَنْ يدري؟ فقد تكتب عن زيارتك لي هذه، وتقول إنها أيضاً من ومضات الخيال! لا أهمية لذلك. المهمُّ هو أنْ تكتب.

الآن، لا أريدك أن تكتفي بالاستماع إليَّ. أنا أتطلع إلى أن أُطلَّ على العالم من خلالك. مضتْ سنة، تقريباً، على زيارتك الأولى. ما الذي يمكن أن تحكيه لي؟

فاجأني سؤالها. قلت وأنا أبحث عن كلماتي :

- ليست كلمة حكي هي ما يناسب هنا، رغم أنني سألجأ إلى السرد. ذلك أنني أجدُني في وضع خاص معك : فقد عثَرْتِ على

بعض من ملامحك في إحدى شخصيات نَص كتبتُه منذ خمسة عشر عاماً، وأنا لم يسبق أن قابلتك وأجدك أكثر حضوراً من تلك التي تَخَيَّلْتُها لأن لك امتدادات في ما حولي الآن، ولك نظرة مختلفة عن نظرتي إلى الأشيَاء. لكنني مُفتَتنٌ بشخصيتك المفَاجأة إذ تُذكرينني بشيء دفين بأعماقي لم تُطاولهُ الكلمات. في هذه الحال، هل أحكي أم أتعقَّب صدى ما عشتُه عندَ امرأة جُبلتْ من النسيان كما تقولين؟

- سيَّان.

«بعد زيارتك في العام الماضي، تابعتُ كتابة نصٍّ روائي استوحيتُ عناصرهَ وأجواءه من واقعة اجتماعية نشرت الصحف في الثمانينات ملخصات مقتضبة عنها. وعندما قرأتُ عبارات من تصريحات الشاب المتَّهم برئاسة العصابة وجدت أن «بَنْ عريش»، وهذا اسمُه، لا يمكن أن يكون مجرد مُجرم منحرف. مَا نَقَلَتْهُ الصحف هو أن بن عريش وأصحابه استقروا بالمغارة الشهيرة في مدينة تازة، وأخذوا يتربصون بالرجال والنساء الذين يأتون إلى المغارة ليتناكحوا داخل السيارات أوْ فوق بُسُط يفرشونها على الأرض. وفي اللحظة المناسبة يحيطون بالمختلين داخل أدغال المغارة وأحراشها شاهرين السلاح الأبيض ثم يأخذون لهم صوراً وَهُمْ عراة ويضعون وُشوماً وعلامات على مناطق من أجسادهم وينتزعون البطاقات الوطنية مطالبين بالإتَاوَة التي يجب أن تُسَلَّمَ في وقت لاحق بأحد أركان المغارة. ويظَهر أن القسط الوافر من هؤلاء الزُّبناء كانَ من بين شخصيات اجتماعية مرموقة تأتي لتختلي

بالعشيقات أوْ بنساء عابرات. ودامت المصيدة عدة أشهر، لأنَّ أحداً من تلك الشخصيات (مقاولون، عسكريون، محامون، تجار. . .) لم يجرؤ على الإبلاغ عن العصابة خوفاً من أن يتعرَّض للفضيحة، خاصة وأن الوشم مُثبت على جلْده. ويظهر أن عسكرياً نافذاً لم يَرْضَ بالإهانة ووقاحة الشبَّانَ، فَتولَّى القبضَ عليهم وتدبير المحاكمة في شروط تَحْفَظُ ماء الوجه والحجْر. مع ذلك، قال بن عريش يوم المحاكمة إن ما فعله مع أصحابَه يرمي إلى الانتقام من الوُجَهَاء ومُدَّعي الفضيلة الذين يستأثرون بكل شيء ولا يتركون للشباب إمكانات للعيش والمتعة . . . وأشارت الجريدة التي أوردت محضراً مقتضباً عن المحاكمة إلى أن الرقابة لا تسمح بنشر بقية ما جاء في تصريحات بن عريش. وعندما بدأتُ أكتب، كنت أرسم ملاحقات العصابة ومَشَاهدَ وَشْمِ أجساد الزُّناة على أنها فعل مَدْرُوس يريد أن يتحدى مجتمع السادة الأفاضل الذين يحكمون من وراء حجاب ويتظاهرون بأنهم يحترمون التقاليد وتعاليم الدين . . .

كنت أسير باتجاه التأويل الثَّوري لتلك الواقعة، خاصة وأن الأزمة كانت في أوْجها ولا صوت يعلو على صَوْت الحاكمين المتصرفين في البلاد وَخيراتها وكأنها ضيعة مُسْتَباحَة. لكنني عندما زرتك في السنة الفارطة وفوجئت بالتطابق والاختلاف المحتملَيْن بينَ شخصية من لحم ودم وبين شخصية يُبْدعُها الخيال، توقفتُ عن الكتابة واستقرَّ رأيي على أن أسعى إلى لقَاء بن عريش في السجن لأجمع بين الحقيقة والتخييل.

ليتني لم أفعل، فقد تبدّد مشروع الرواية بعد لقائه. ورغم أن المحامي الذي رافع عنه والذي سهل لي زيارته، حذرني من أن بن عريش صَلْبٌ، ممتلىء بالمرارة رافض جذْرياً للمجتمع، فأنني أصررتُ على أن ألتقي به. كنت أنتظر أنا والمحامي بغرفة صغيرة داخل السجن عندما دخل بن عريش بقامته المتوسطة وشعره الأسود المجعد المخلَّل بشعرات بيضاء، نظراته حادَّة وتعبير وجهه يشي بالكبرياء والوثوق بالنفس. سلم عليه المحامي وقدّمني إليه ممتدحاً كتاباتي فظلَّ هو ينظر إليَّ من غير اكتراث ثم استأذن المحامي ليتركنا نتحدث. كنت أعرف أنه أمضى ستَّ عشرة سنة في السجن وعليه أن يكمل أربع سنوات أخرى. أشْعَلَ سيجارة وظلَّ صامتاً وهو ينظر من خلال نافذة تُطلُّ على باحة السجن. شعرتُ بالاضطرات أو بالأحرى أدركتُ الوضع المضحك الذي أُوجَدُ فيه. مع ذلك صممَّتُ على أن أستدرجه إلى الحديث :

– أودّ أن أعرف لماذا لجأتَ أنت وأصحابك إلى مباغتة الباحثين عن المتعة في خلواتهم؟ ولماذا استعملتم العنف؟

صدرتْ عنه ابتسامة سخرية وظلَّ ينظر إليّ بدون أن يُجيب. بعد قليل قال بخشونة :

– وماذا يهمك أنت من قصة المغارة بعد كل هذه السنين؟

– أنا أريد أن أعرف المزيد حتى أكون قريباً من الحقيقة في ما سأكتبه. لديَّ انطباع بأن الناس لم يَطَّلعوا على تفاصيل الفضائح التي لَحَقَتْ عائلات تعتبر محترمة في تازة. لقد أخبرني المحامي

بأن تعاليم صدرتْ للتستر على أسماء الزوجات والأزواج المصونين، ولذلك أريد في ما سأكتبه أن أُعيرَ قَلَمي لِمَنْ حُرِمُوا من إسماع صوتهم وتبرير أفعالهم . . .

– كل هذا الكلام لا يهمني الآن؛ ولا أظن أنه يهمُّ أصحابي. ماذا فعلتم (كيف أُسميكم أنتم جميعاً؟) حينما كنا نُحاكَمُ منذ ست عشرة سنة؟ هل فكرتم في مساعدتنا آنئذ لنقول ما كان يملأُ النفس من غضب ويدفعنا إلى اليأس والعُنْف؟ هل فكَّرتم في تلك العصابة كما أسْمَتْنا الصحافة، وفي وضعيتنا المزرية وكيف كنا نعيش منسيين من الجميع متروكين لحساب الشيْطان؟ الآن أخْطُر على بالك لتنسج مني شخصية روائية موجودة في الواقع وتطرز حواشيها بالتواشي وبضفائر الصَّنْعة والسرد والحوارات الصادرة توّاً من ردهات السَجن . . . خير وسلام! قد تَعْثُرُ في مناماتك على ما يُسلّي قرّاءك بطريقة أفضل. ألا تُحسُّ خللاً في موقفك أيها الكاتب؟

لماذا تريد أن تتقهقر إلى الوراء؟ افتح عينك على ما يجري الآن لتُدْركَ حجم العنف الذي هو عنصر جوهري في الحفاظ على توازن مَجتَمعكم الذي تُصَدِّعُنَا الخطبُ ووسائط الإعلام بأنه ينعم بالأصالة والاعتدال وإسعاف المحتاجين. ألم تسمع عن تلك الحادثة التي وقعت منذ سنة قُرْبَ سوق مرجان الكبير بين الرباط وسلا؟ تلك المرأة العصرية التي أوقفت سيارتها تحت الأشجار ودخلتْ للتبضُّع، وعندما عادت وجدت أن دُولابَ سيارتها مَفْشُوش وشاب أنيق يتحدث الفرنسية ينتظرها ويعرضُ عليها أن

يُغيِّر الدولاب. وعندما انتهى التمس منها أن توصله إلى وسط المدينة فابتسمت مُرحّبة؛ وعلى الطريق أخرج سكينهُ الحادة وأرغمها على تحويل الاتجاه نحو غابة معمورة حيث اغتصبها ثم فَقَأَ عينيْها حتى لا تتعرَّف عليه! لا تَقُلْ لي هذا عنف «مُسْتَوْرَد» من الأفلام والمسلسلات الأميركية؛ بل هو عنف نابتٌ من هذه التربة التي نعيش فوقها، تسقيه قسْمَةٌ ضيزَى فرضها الحكّام وتشبَّثَ بها المستفيدون . . . والآن تَدْعُون إلَى الأخلاق والتخليق لمواجهة عواقب العنف التي بدأت تَفُوقُ تلك التي خلَّفها العنف السياسي. ألَسْتُم تبيعون القرْدَ وتضحكون على مَنْ اشتراه!

وجدتُني فعلاً، في مأزق والكلمات التي هيأتُها لإقناعه لم تَعُدْ ذات ثقْل. قلتُ له في محاولة أخيرة :

- أريد أن أقول لك بأن الكتابة كما أفهمُها، لا يمكن أن تكون إلاَّ بجانب المقهورين. أنا من خلالك أريد أن أستعيد لحظات السَّعَر التي جسَّدَتْها تجربتكم أمام التَّفاوت والظلم والتَّهميش.

- هذا كلام لتَرْويج بضاعتك وكذبة مكشوفة لأنك تكتب في مجتمع ثلثاه من الأمِّيين.

- هذه ليست حالة دائمة. ألاَ تريد لمجتمعك أن يرتقي ويتغيَّر نحو الأفضل؟

- في أي شيء يهمني خير هذا المجتمع؟ أمضيتُ زهرة شبابي في السجن. اكتشفتُ هنا، بؤس الآلاف الذين يعيشون كالحشرات. قانون العنف والمال هو السائد أيضاً في السِّجن كيف

تريد أن يكون لي منطق آخر. نحن في موقعيْن مختلفين. سَعْيك مشكور، لكنني لا أنتظر مساعدة من أحد، وأقَلّ من ذلك عندما يتعلّق الأمر برواية تشحذ الوعي كما تقول. شْحال قَدَّكْ من استغفر الله ألبايتْ بلَا عشًا؟ أنا وأصحابي نفكر بطريقة أخرى لننتقم للظلم والحيف اللذين عُوقبنا بهما. نحنَ نُهيء لما بعد خروجنا من السجن. هذا هو الأهمّ. تعرف أن أبواب الأمل والرّزق مُوصَدَةٌ في وجوهنا، ومحكوم علينا أن نعيش وسط غابات تُزيِّن مَدَاخلَها القوانينُ والتعاليم السماوية وشعارات التوافق والوئام، إلاّ أن طقوسها تتستَّر على مَنْ يفترسون ويمتصون العظام قبل أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. سنحاول أن نتجنّب الوقائع الرومانسية والفضائحية مثل تلك التي أنْجزناها في المغارة لأننا لا نريد أن نَقَعَ منْ جديد في قبضة البوليس، وأيضاً لأننا صرنا نعرف أكثر، داخل السجن، ما هو الواقع وما هي مسالك السلطة والعدالة وخفاياها. ادْعُ لَنَا بالتوفيق أيها الكاتب الشَّهم. وانت، اللَّه يسهل عليك. الصحف رَاهَا عامرة بالجرائم والغرائب والفضايح، ما تَحْتَاجْشْ تْسَوَّل الفاعلين والضحايا، انتَ فيك البركة. لكن ما تْعَوَّلْش عليًا نَقْرَا لك. إيلا كتبت شيء رواية بوليسية فاعلة تاركة، أنا معاك...».

لا أخفيك، يا عزيزتي ف. ب، أن ذلك اللقاء مع بن عريش عطّل مشروع رَوايتي، بل صَرَفَني عن الكتابة لعدّة شهور. وجدتُه شخصاً حقيقياً فيما الآخرون يَبْدُونَ لي أناساً هُلاميِّين من قَشٍّ

وكارتون. لأي شيء تفيد الكتابة عن رجل يقول بالفم الملآن وباقتناع كامل أنه لا يريد أن ينتمي إلى هذا المجتمع الذي نحاول أن نَنْحَت كيانَه، مُجدَّداً، من كلمات وقيم لا وجود لها في الحياة الفعلية؟

مهما كتبتُ، تظل كلماته أقوى لأنها تنسف ذلك العالم الممكن الذي أُوهِمُ نفسي بأنه هو البديل عن سيرورة التدهور المتعاظمة سنةً بعَد أخرى. عاش بن عريش التجربة بوعي وأدّى الثمن من شبابه، وَمِثْلَهُ الآلاف، ولذلك يُجْزِمُ بأن الأحوال مستعصية على الإصلاح. كيف أتجاسر أنا علَى أن أنسج من مغامرته، من مصيبته، منْ قدَره المعتم، رواية تراهن على الأفضل؟ ألَنْ أكون مجرد مُلوِّح بالمرايَا في وَجْه السَّراب؟

أشعر أن مثل هذه الحفرة لاَ تقوى الكلماتَ على رَدْمها. كأنما الكتابة لا تكون ممكنة إلاَّ عندما نَغُضُّ الطرف عن تلك الهُوّة الفاغرة فاها التي تُذكرنا بأن الكلمات لا تُرمِّم شيئاً من الشروخ القائمة في كل ركن وداخل كل نفس».

كانت رعشة انفعال في صوتي، وكانت عشوة المساء الصيفي قد أخذت تغمر الغرفة وف. ب تتطلع إليَّ وتهزّ رأسها هزات خفيفة. وقفتْ متباطئة واتجهت نحو آلة الآقراص المدمجةَ وضغطت على زر فانطلقت أنغام سُونَاتة لم أتبيَّن مؤلفها. جاءت بزجاجة عصير من الثلاجة ووضعتها مع كأسيْن على الطاولة المنخفضة الممتدة بيننا. سألتني بصوت هادىء:

– وماذا فعلتَ منذ تلك الزيارة للسجن؟

– عدتُ إلى القراءة. نفضتُ الغبار عن نصوص جميلة تشدّني وتحرك مخيلتي ومشاعري كلما قَرَأْتُها. كأنني أحاول أن أتأكد من أن كلام بن عريش لم ينجح في زعزعة تعلُّقي بنصوص لا تزعم أنها قادرة على تغيير الواقع . . . عدت إلى «زرقة السماء» Le bleu du ciel لجورج بَاتَايْ، أظنك قرأت هذا النص خلال إقامتك بباريس؟

هزت ف. ب رأسها موافقة؛ فتابعتُ:

« ذلك السَّارد الموزَّع بين نساء عديدات الذي لا تشتغل شهوتُه إلاّ داخل مقبرة أو بمضاجعة امرأة ميِّتة، الذي تجتذبه أصداء الثورة في برشلونة فيكتشف أنه هرب من باريس ومن لندن لينسى فشله وعذاباته الجنسية والعاطفية لكنه وجد أن تفاصيل الثورة وتَحْضيراتها لا تنفعه في شيء. ما من طريق سالكة والمأساة كامنة في استحالة العلائق الطبيعية وتعثُّر الحب المُكتَمل. وما من أحد يَجْسُرَ على أن يواجه حياته بما هي عليه وبما تحتويهَ من تألق وتدهور وانحدار: «وأدْرَكْتُ أنني أحبّ فيها تلك الحركة العنيفة. ما كنت أَحبه فيها كان هو كراهيتها. كنت أحب البشاعة غير المنتظرة والفظيعة التي كانت الكراهية تُضفيها على ملامحها».

كيف نميز ما نحب وما لا نحب؟ تلك المتاهة هي جحيمنا. ولا أكتمك أنني فكرت فيك يا عزيزتي ف. ب وأنا أقرأ عن علاقة السارد بَديرتي Dirty: الجمال المفرط، الجمال الذي يجرح، البهاء

الذي يمحو ما عداه، والعاطفة الجارفة المتمنّعة عن الاكتمال والاستقرار، والشغف الحارق، والشهوة المستحيلة في حدود المواضعات البشرية، ثُمَّ زرقة السماء التي تنادينا وتستدرجنا إلى عزائها باستمرار . . . ».

ضحكت ف. ب بصوت مسموع هذه المرة وهي تقول:

- أنت لا شفاء لك أيها الكاتب. حكيت لك باسهاب عن حياتي وعن تعثَري وعذابي وأنت تُصرُّ على أن تختزلني إلى بضع جمل هي بدورها اختزال لقصة رجل ونساء عاشوا في سياق آخر وبتفاصيل مختلفة . . . ألا تستطيع أن تنظر إليَّ كما أنا ناسياً ما قرأت؟

- أنت تطلبينَ المستحيل. إذا أخذتُ الناس حسب واقعهم وحسب الكَلماتَ التي يستعملونها للتعبير عما يظنونه حياتهم، سأُحسُّ بالاختناق وسأحس أنني أخنقهم أيضاً.

- إذن لا شفاء لك. وحتى بن عريش الذي خلخل نَسَقَ اللغة والسرد وإيحاءات المعنى، تَتحدَّاهُ بالعودة إلى شرنقة الكلمات واستيهامات الذات ومتاهاتها؟

- بن عريش في واقعيته المفرطة يُمهِّد لشيء مُغاير لا يَعيه. وقد تكون جذْريتُه أحد العناصر في بلورة وَعْيٍ آخر بالحياة لَدَى الذين بَذَروا الحيْفَ والعنف وتستَّروا عليهما . . .

- بوُدِّي أن أُصدقك. بِوُدِّي أن أصدق الكلمات التي تفتح كوَّة وسَط الظلمة.

- بودي، أنا، أن تُسعفيني على فَهْم بعض الحالات التي عشتها موزعاً بين أكثر من امرأة وأنا أنتظر تغييراً مستحيلاً، متلكئاً.

- كيف أعينك على الفهم إذا كنتُ عاجزة عن إدراك متاهات حياتي التي سردتُ عليك أهمَّ لحظاتها؟ أستطيع فقط، يا صديقي، أن أستمع إليك لأن القصص تُؤَثِّثُ ذاكرتي وتُلوِّن عُزْلتي.

- «في بداية السبعينات، تعرفت بباريس على جوزيت، طالبة سويسرية كانتْ تحضر أُطروحة عن الطبقة العاملة ببلادها. أخبرتني، فيما بعد، أنها عضو بالحزب الشيوعي، وأنها من أسرة فقيرة فأدركتُ العلاقة بين أطروحتها وبين وضعها الاجتماعي، خاصة في بلاد لم أكن أتصور أن يوجد بها فقراء. تَنَامَتْ علاقتنا، أول الأمر، من خلال الاهتمامات الثقافية والفكرية المشتركة ثم عَبْرَ لذَّات الجسد وحميمية لحظات العُري والبَوْح. كانت تتكلم بسهولة أكثر مَني عن حياتها وعلاقتها بالآخرين. حكت لي عن علاقتها المتعثرة بمناضل شيوعي من الشيلي يعيش بمدينتها لوزان، ما جعلها ترحل إلى باريس. . . ولم نكن منصرفين فقط إلى الحب، لأن مناخ ما بعد 1968كان يذكي التساؤلات عن مصائر المستضعفين وعن الثورات المتأججة عبر العالم. في الصيف الموالي لتعارفنا، اقترحت على جوزيت أن ألتحق بها في لوزان لنمضي أسبوعين معاً. لكنها لم تكن تستطيع أن تؤويني ببَيْتها لوجود العشيق الشيلي، فسجلتُ نفسي بدورة دراسية عن الفنون التشكيلية. في لوزان، كنا نلتقي بانتظام ونتابع حواراتنا وخلواتنا، غير أنني

تعرفت، خلال الأسبوع الأول، على صوفيا الإيطالية التي كانت تَحْضُر الدورة الصيفية. كانت أصغر مني بعشر سنوات وتريد أن تكتشف، إلى جانب مدارس الرسم والأساليب الفنية البارزة، بعض أسرار الجنس وسلوكات الرجال، وكأن ذلك جزء من الدورة التعليمية. صوفيا ذات جمال ملتبس: لعينيْها العسليّتيْن وشعرها الكستنائي نُعومة خالصة فيما وجهها المَستطيل وشفتاها المكتنزتان وصدرها النافر، يُبرزون شبقية متعطشة لا تكاد ترتوي. لم يكن بوسعي أن أتريث أو أنْ أُقارن بينها وبين جوزيت، فاندفعت بكل حَميَّة الشباب التي كانت تجري في عروقي آنذاك. كان كل شيء واضحاً بيننا : أسبوعان وينتهيان وتبقى حلاوة العُشْرة والسهرات ومذاق الجسد الذي سيتحول إلى ذكرى منعشة. ما لم يعد واضحاً هو علاقتي بجوزيت لأنني اضطررت إلى الاعتذار عن تلبية دعواتها زاعماً أنني متعب أو منهمك في الكتابة. ولعلها أدركت أنني محمول بين ثنايا الموج فاكتفت باللقاءات القليلة التي كنت أخصصها لها كلما استطعت أن أتملَّص من صوفيا. أسبوعان حافلان والنشوة مكتملة لأن الحوارات الثقافية التي كنت أفتقدها عند صوفيا كنت أجدها عند جوزيت. وقلت إن الصدفة هى الأمهر في ترتيب المفاجآت والعُطل أيضاً. لكن المفاجأة التي لم تكن على البال، حصلت يومين قبل انتهاء الدورة؛ فقد طلبتْ مني زميلة بالدورة التعليمية أن ألتقي بصديقة لها تريد أن تستفسرني عن الحي الجامعي بباريس وعن بعض التخصصات بمعهد الدراسات العليا

لأنها تنوي متابعة دراستها هناك. أعطيتها موعداً في نفس اليوم والتقينا بأحد المقاهى وقدَّمتْ لي صديقتها مارتين ثم انصرفت. كنت، فيما أتذكر، أتصرف بتلقائية وباستعجال لأن موعداً كان يربطني بصوفيا في نفس المساء. وكانت مارتين الشقراء ذات العينيْن الخضراويْن، رشيقة رشاقةً تَبدُو معها نحيلة مثل ريشة قد تُحلِّق عند أول هبَّة ريح قوية. نَظراتُها عميقة، حزينة، كأنها تنظر إلى الدنيا من سديَم آخر. كانت تتكلم برقَّة لافتة فيما كنْتُ أُجيب على أسئلتها برُعُونَة وخفَّة دم مصطنعة. كانت، مثلاً، تسألني عن أفضل بيتَ بالحي الجامعيَ في نظري، فأجيبها بأن أيَّ بيت تسكنُه ستكون فيه أميرة مُتوّجَة. وتعاود هي سؤالها بنفس الرقة والحشمة متفسرة عن السِّمينرات المفيدة وعن الأساتذة اللاَّمعين، فأعمد إلى اختزال الأجوبة قائلاً بأن عليها أن تقرر المجيء إلى باريس وستَجدُني عند بابها لأسهل لها كل الترتيبات وأجيب على الأسئلة في عينَ المكان. لم أكن أدرك الأهمية التي كانت تعلقها على سفرها إلى باريس لأول مرة، ولم أتفطَّن إلى تلك الغلالة الرومانسية الشفّافة التي كانت تُدثِّر رُوحَها. انتهت المقابلة وأعطيتها عنواني ورقم هاتفي لتتصل بي عندما تصل إلى باريس. صباح الغد، وكان أخر يوم لي هناك، اتصلت مارتين لتقول لي، برقَّتها وتأدُّبها المُفْرطيْن، أنها لَنْ تأتي إلى باريس في مطلع السنة الدراسية وأن عليّ ألاَّ أنتظرها. حاولت أن أُلحَّ لأفهم لماذا غيَّرت رأيها فأجابتْ بأن ذلك يَخُصُّها.

منذ ذاك، لم يُفارق طيفُ مارتين مخيلتي. بدأتُ أستعيدها

في ذاكرتي، عبر نظراتها وإشاراتها ورقتها وجسدها ذي الخفة المتناهية. استولى عليّ وَهْمٌ أن مارتين مُغايرةٌ لكل النساء وأنها هي التي كانت ستجعلني أستغني عن جوزيَت وصوفيا وأخريات لأكتفي بها عبر مغامرة لا تنتهي إلاّ لتبدأ. وَهْمٌ؟ ربما. سلوك عاطفي-جنسي غير طبيعي؟ ممكن».

قالت ف. ب في هدوء:

«نحن مُولَعُون بالحديث عن التجارب التي نعتقد أنها أصبحتْ في عداد الماضي، فهي التي تجتذبنا فنعود إلى تحليلها وتشريحها. لكن لماذا التشبث بالتفسير؟ بالنسبة لحكايتك، أظن أن الكثيرين والكثيرات أحبُّوا امرأةً ميّتة أو رجلاً رَحَلَ عن الدنيا. الغياب مثل النسيان: لا يكفّ عن استثارة ذاكرتنا ولا نتوقف عن الجَرْي وراءه»».

وقفتُ مُستأذناً في الانصراف، فطلبتْ مني ألاّ أُطيلَ الغياب لأن قلبها يخبرها بأن إقامتها بيننا أوْشكتْ على الانتهاء. هززتُ رأسي لأنفي ما تقول وقبّلت يدها واعداً بزيارة قريبة.

وسط ضجة الشوارع وأضواء النيون والإعلانات، كنتُ أتساءل مع نفسي: لماذا تظل تلك اللقاءات غير المتحقّقة تُطاردنا؟ لماذا توحي لنا اللقاءات التي لم تتمّ بأنها تنطوي على مَسَرّاتٍ كانت ستغيّر مجرى حياتنا؟

هل نستطيع أن نعيش علاقة مكتملة، حُلْمية، مع امرأة واحدة؟ أم أننا نعيشها بِالحتم، موزَّعة بين أكثر من امرأة وذاكرة أنثوية؟

.4.

«أُغـادر للتوّ، حلماً لا أستطيع أن أحكيَه. الحلم لا يمكن أن يُثَبَّت. إنه يَسيلُ، وكلُّ صورة من صُوَره تتحوّل باستمرار طالما أنها لا توجد إلاّ في الزمان وليس في الفضاء»

جان جونيه

هل العشق موتٌ؟
هل الموت عشق إذن؟
وما نَفْعُ أن أتوسّل هذا المصير
أو أحاول أن أستعير سواه؟
وما نَفْعُ أن أبحث الآن
عن وطن غير هذا الوطن
وأنا ما عدْتُ أعرفه
حين ألقاه؟

فرانسوا باسيلي

لم يداخلني الشك بأنني في حلم، إلاّ عندما لمحتها من بعيد بوجهها المفرط البياض وتقاطيعها البارزة جراءَ نُحولة متعاظمة. مع ذلك، ظللتُ مذهولاً مما أشاهده وأسمعه : حشد كبير من رجال ونساء، أزياء متباينة، فضاءات ممتدة تحدّها بنايات مطلية بدهان ورديّ مفتوح، وبضع خيام بيضاء متناثرة. الحركة دائبة. مجموعات تتحدث بصوت مرتفع، أفراد يتمشون وهم يتبادلون التحايا بالأيدي من بعيد، آخرون يتكلمون في التليفون المحمول. أصوات صادرة من ميكروفون تخبر أو تدعو المتواجدين في الساحة إلى الألتحاق بالقاعة.

كنت أعرف وجوه معظم الحاضرين، لكن وجه ف.ب فاجأني ربما لأنني لم أكن أتوقع وُجودَها هناك. وحين أقتربت منها اكتفتْ بأن همست لي : لعل هذا المشهد يذكرك بما عشناه في 1962؟ ثم تابعت طريقها متغلغلة وسط الجموع فلم أعد أتبيّن قامتَها.

كيف يمكن أن تكون حضرت معي تجمع 1962 وأنا أكبرها بعشر سنوات، ولم يخبرني الهادي بقصتها إلاّ في بدايات1969؟

سرعان ما انغمرتُ مع المتجولين في الساحة، متبادلاً الكلمات والقبلات، مُستمعاً إلى التعليقات القصيرة، مستفسراً عن أخبار مَنْ تباعد بيني وبينهم اللقاء.

أسير بخطو خفيف لا تكاد قدماي تلامس الأرض، والجموع

تفسح لي مسلكاً وكأنني أغوص في تلافيف ضباب لا يُفقدُني الرؤية. السمع هو وسيلتي الوحيدة لمدّ الجسور مع الآخرين في هذا الفضاء المحتشد غير المعتاد لديَّ منذ سنوات. أتَسمَّع، أهُزُّ الرأس مجيباً على تحيّة أو ابتسامة دون أن أتوقف عن السير، لأن رغبة جامحة تحثُّني على أن أخترق هذا السديم لأطوّق حواشيه.

لا أدري الأمد الذي استغرقه اكتشافي واستطلاعي وسط تلك الجموع. وجوه كثيرة خُيِّل إليَّ أنني أراها لأول مرة. وجوه أخرى كانت توقظ في ذاكرتي التماعات مفاجئة تعود إلى 1962 أو إلى ما قبلها. وكنت مستثاراً، متحفزّاً، شأني كلما وجدتُني أمام ما يُلخّص لحظات أعتبرها أساسية في مساري وملتصقة بذلك الوجدان الذي يُعربُ عن حضوره في سياقات تلائم مكنوناته.

وجدتُني، بعد أمد، أرتاد رُواقاً كبيراً، متسع الأرجاء ممتلئاً بالكراسي والطاولات والميكروفونات والكاميرات. مناخ احتفالي؟ لكن أصوات المرشدين كانت تحدد أماكن الجلوس بحسب الأرقام والمشاركون في التجمع يتسارعون إلى مقاعدهم. ولم أكن أحمل رقماً فاخترتُ كُرسياً عند نهاية الرُّواق دون أن تكفَّ عيناي عن ملاحقة الحركة واللغط.

وأنا أتطلع إلى المنصّة الكبيرة رأيت رجلاً تحيط بوجهه لحية مشذبة يشير بيده اليمنى إلى شخص رَفَعَ يده وسط القاعة الفسيحة. خفتت الهمهمات وشمل الصمت الجالسين. أدركتُ أنَّ الرُّواق دخل في طقوس خاصة. وكالعادة في مثل هذه المواقف،

رحتُ أبحث في مخيلتي عن صورة تقرِّب لي ما أُشاهده في ذلك الحلم المفاجىء. لعلني في بُرْج بابل؟هو ذاك، رددتُ هامساً. جُموع حاشدة ولكنها تتواصل بشكل منظّم كأنها تؤدي تشخيصاً تدرَّبتْ عليه: أصوات تتناوب على الكلام، تعلو الحناجر أحياناً وتتوتّر الإشارات، وأحياناً تأخذ الكلمات إيقاعاً متواتراً هادئاً. وهَمهمات وردود فعل تسري في الرواق المرصوص فأتخيلني عضواً في هذا الجسد الضخم الذي أوى إلى هذا البرج المنطلق إلى سَمَاوات تحميه من أمواج مكتسحة. وكأن صورة هذا البرج طمأنتني إلى الموقع الذي أُوجد فيه، فَأصَخْتُ السمع لألتقط ما تتلفَّظه لغاتُ بابل:

- المهم أننا تغلَّبنا على العقبات. ها نحن نَستأنف لقاءاتنا المؤجلة. كادت أصواتنا تصدأ. كُنا نعيش في سديم.

- الوضوح لا يعني أن نتكلم لغةً واحدة... هناك أماكن فارغة مع أن تعاليم بُرجنا تضمن لكل الأصوات منبراً.

وقف تَاخْمُوت في أقصى المنصّة مستأذناً من الرجل الملتحي قبل أن يرد على المعترض:

- هذا الغياب مؤقت. لو لم نُبَادر إلى تنظيم اللقاء لاستمر التأجيل والتسويف. وهذا يسيء إلى مَنْ نُمثّلهم. الحركة ستخلق جدليتها وهدفنا هو الصالح العام، كما تعلمون.

تصفيقات. هتافات.

ارتفع صوت: لا نريد غالباً ولا مغلوباً.

رد تاخموت بصرامة. : شيء من الانضباط أيّها الإخوة.

همهمات وتَعليقات وسط القاعة. إشارة من يد تاخموت انطلقتْ بَعدها حناجر فَتيَّة بالهتاف. خَفَّ التوتر قليلاً. تابع الحاضرون تَعَاقُبَهم على الكَلام. بعد كل تدخل يردّد رئيس المنصة: طبعاً ستؤخذ هذه الملاحظات بالاعتبار.

انشددتُ أكثر إلى مشاهد الرُّواق، قلتُ لا بأس أن أتقدم قليلاً لأرى وأسمع بكيفية أوضح. بعد بضع خطوات وَجَدتُني وجهاً لوجه مع المعتصم. يا إلاهي حتى هنا يلاحقني! أَخَذني منْ مرفقي وهو يردّد: أهلاً، أهلاً. زَارتُنا البركة. يظهر أنك غيَّرتَ رأيك لأنني سمعتُ أنك لن تحضر معنا... إكتفيتُ بالابتسام فاستمر في كلامه: لا يجوز الحديث عن غالب ومغلوب؛ والمباراة بعد في بدايتها. أليس كذلك؟ سألته متظاهراً بالبراءة: مَنْ هُمْ تخموت وقَرْبَال وعيْطاط الذين يتردَّدون على مَنْبر الكلام؟ إنهم الثلاثي المكلَّف بتحضير طقوس اللقاء، هل نسيتهم؟ قلت مُتخابثاً: لا، وإنما أسماؤهم الجديدة هذه جعلتْني أظن أن الأمر يتعلق بثلاثي قَلْبِ الهجوم في فريق الوداد القديم.

- لا، لا، الأحكام المسبقة مرفوضة والديمقراطية لا تَتعارض مع الإمساك بزمام الأمور. لا بأس أن يأخذ القويُّ بيد الضعيف والمتفقِّه بيَد الجَاهل. أنت سيّد العارفين. تعال أجلسك بالقُرب، من أصدقاء يَوَدُّون رؤيتك...

توالت الخطب والكلمات والشعارات والهتافات. أحياناً

تتعالى ضحكات قصيرة ثم يسود الكلام. ما أسمعه ليس جديداً عليّ، هناك اختلاف في طرائق التعبير وبعض المفردات، لكن ما يقال يذكرني بما سمعتُه في تجمُّع 1962 الذي أشارت إليه ف. ب المختفية ولا شك وسط هذه الحشود. وأرجعَتْني الذكرى إلى مشهد ظل عالقاً بذاكرتي منذ ذاك.

كنتُ وثلاثة أصدقاء جالسين بأوّل صفٌ، تحت المنصَّة، ومعنا صحفيّ فرنسي شهير جاء ليغطي أحداث التجمُّع التاريخي. في لحظة معيَّنة، سألنا الصحفي وهو يتطلَّع إلى القياديين السبعة الجالسين على المنصَّة:

- مَنْ برأيكم، منْ السَّبعة، هو عين القَصر داخل الحزب؟

ضحكْنا لنُذَوِّبَ السؤال مُعتبرينَهُ مجرد نكتة. لكنه مضى يحكي تفاصيل عَن عَيون مُترصِّدة قائمة في كل التنظيمات العتيدة بفرنسا، واستغرب كيف أننا نستبعد مثل ذلك داخل منظمتنا.

هذا لم يَعُد وارداً الآن، وحتّى إذا حصل في الماضي واكتشفناه مؤخراً، فليس هناك، راهناً، ما يستدعي الحيطة والتكتُّم. نحن نعيش مرحلة الوضوح والشفافية. نعم، الوضوح. لا أحد يمكنه أن يؤاخذ أحداً على شيء. هكذا يستطيع رئيس تحرير صحيفة تنتمي لحزب معارض بالأمس القريب، أن يكتب افتتاحية مديح عن وزير الداخلية الجديد، كما يجوز لرئيس نقابة عتيدة مُناهضة، أن يَستدعي لحضور جلسة افتتاح مؤتمر الطبقة الشغيلة، وزير داخلية معروف بانتهاكاته لحقوق المواطنين!

لكن، رغم ذلك، هناك أشياء تغيَّرتْ لحسن الحظ.

تغيَّرت؟

بالتأكيد.

إنما كيف نقيسُ الحاضر لنُدرك مدى التغيُّر؟

لا داعي للسَّفْسطة. هناك إجراءات وقرارات تشريعية وظواهر سامية، والشاشة الصغيرة لا تُخفي شيئاً.

وماذا عن الصراعات المتناقضة بين صَانعي التغيير؟

شيء عادي. ظاهرة إنسانية. هناك دَائماً الثائرون المتمرّدون وهناك المستفيدون من ثورة الآخرين.

والحلَقية وسَدَنة الزوايا؟

من ضرورات الفعل التنظيمي إذ لا توجد ديمقراطية مُطلقة.

وإذن، المتمردون أيضاً قد يُفرزون قوَّة مُتحكِّمة؟

بالتأكيد. فهذا مظهر آخر لقوانين التاريخ.

ما جدوى، إذن، أن أُصارع الشرَّ من داخل أجهزةٍ ستُفرز بدورها، الإقصاءَ والتهميش والحلقية؟

عندما تُهدّد سلطة مُطلقة حريتنا ووُجودنا، يكون الصراع معها ضرورة عاجلة بغضِّ النظر عن العواقب التي تُشير إليها.

رغم الخيبات المنتَظَرة؟

رغمها. بل هي التي تُشعرك أن الصيرورة هي غير التاريخ المرئي، المُعلَن عنه، الذي يُدير دَفَّتَهُ قائد أوركسترا لا يملك سوى عصاه وحركاته البهلوانية.

وما الصَّيرورة؟

ما المسؤول بِأعْلَمَ من السائل. لكن يُخيِّل إليَّ أنها تُؤثر

على تلك اللحظات التي نحسُّ خلالها بأنَّ كيانَنا كلَّه حاضر ومُتورّط في فعل نعتقد أنه الوحيد «القابَل للاعتقاد» والمفْضي إلى تغيير نَوْعي مُحْتَمَل لعلاقتنا بالذات وَالاخرين . . .

وانْتَبَهتُ من تلك الحوارات الداخلية على صوت الأستاذ السنْدوسي، وهو جامعي مجتهد، واضح التعبير :

«على كل حال، الحُكْم فَرْعُ تصوّره كما يقول الفقهاء . ولذلك لا بأس أن نتَّفق على أن السلطة في بلادنا، توجد مُوزّعةً بين ثلاثة محافل أساسية، متفاوتة من حيث القوَّة والنفوذ : هناك مؤسسات السيادة والمخابرات والجيش، ثم رجال المال والأعمال والامتيازات (الموروثة أو الموهوبة)، ثم الحكومة التي يُحدّد الدستور اختصاصتها . .

ارتفعت أصواتٌ تقاطعه، إلاّ أن القاعة طالبت بأن يُتابع كلامه . بعد مهلة، أضاف :

«هذا التذكير بحقائق الأمور، كما هي لا كما يجب أن تكون، يجعلكم تدركون قواعد اللُّعبة وما تتيحه منْ رهانات، ويجعلكم تتعرفون، كذلك، على الموقع الذي تحتلُّونَه في هذه الرقعة الواسعة المعقَّدة .

«بتعبير آخر، العُنصران الأوَّلان ثَابتان والحكومة متغيرّة . إلاّ أن هذه الأخيرة تستطيع أن تتدخّل لتُعيد توزيع السلطة داخل المَحافل الثلاثة إذا كانت تحظى بالثقة والتمثيلية . . . والسؤال الذي أريد أنَ أطرحه عليكم وأرجو أن تَتَمَعَّنوا فيه هو : هل تريدون تَغْيير السلطة باتِّجاه الوصول إلى معادلة مُتوازنة؟ أم تريدون الاستمرار

في غضّ الطرف عن الأفق الوحيد الممكن لاختراق النَّفق الضيّق؟».

تصفيقات يقاطعها الصفير.

ثم وقف شخص مدوّر الوجه، مَربوع القامة، جهوري الصّوت:

«أريد أن أقول لقيادتنا شكراً على هذا الدَّرس الذي لقَّنَتْهُ لنا... لقد علَّمَتْنا كيف تُخْتَرقُ حقوق المناضلين وكيف تُداس الديمقراطية. علَّمَتْنا كيف يتمُّ الانفراد بالقرارات بِحُجَّة إنقاذ البلاد من هاوية محقَّقة دون الانتبَاه إلى...».

تَعالَى صفير الاحتجاج ودَمْدَمتْ أصواتٌ نَفَدَ صَبْرُها، وصدرت إشاراتُ غضب من بعض القادة الجالسين على المنصَّة. كانت مفاجأة غير متوقّعةً. إلاَّ أن عَيْطاط بادر إلى الميكرفون وقال بصوت مرتفع:

«لقد سبق للأخ المتكلم أن فَاهَ بهذا الكلام منذ ثلاث سنوات خلال اجتماع اللجنة المركزية ولم يجد آذاناً صاغية، والقافلة الآن تسير ولا داعي لمثل هذا النُّباح. لذلك أطرح للتَّصويت نقطة نظام عاجلة تَقْضي بألاَّ نتحدث في هذا التجمُّع التاريخي إلاَّ عن القضايا والأسئلة المستقَبلية لأنها هي رهاناتُنا الجوهرية...».

تصفيقات. تأييد لنُقطة نظَام. هُتافات بحياة القادة.

ويظهر أن التَذكُّرَ، حتّى في أوْجِ الحلم، لا يكف عن الاشتغال، إذ سرعان ما وجدتُني أستحضر ما قاله خبيرٌ بشؤون «المخزن» وطقوسه أثناء مناظرة «علمية» حضرتُها منذ سنتيْن. قال

الخبير المستشار، رداً على ملاحظات تتَّصل بمُعتقلين أمْضَوْا رُبْع أعمارهم تقريباً في زنازن سرية دون محاكَمة، إنه لا يجب أن نُضخم تلك الواقعة ولا أن نُغالي في التعاطف مع ضحاياها لأنّهم هُمْ أيضاً ارتكبوا ما يستوجب العقاب، ومن السابق للأوان القول بأن المخزن أخطأ عندما لجأ إلى تلك الاعتقالات اللاَّقانونية. وأضاف بأنَّ تعلُّق المغرب في عهده الجديد بحقوق الإنسان، لا ينبغي أن يُنْسيَنا فضائلَ تقاليد المخزن، إذ بالإمكان الجمع بينهما وفي ذلك تأكيد لقدرة بلادنا علَى الموازنة بين الأصالة والمعاصرة!

كنتُ أريد أنَ أحكي ما سمعتُه من ذلك الخبير لبعض المتحدثين في هذا التجمُّع المبارك، الذين ألحّوا على أننا «أولاد اليوم» وأن المحاسبة هي من مَهامّ المؤرخين ومُحلّلي الماضي، ولا داعي لخلق تصدُّعات تعوق مسيرة الإصلاح والتَّقويم والتخليق. (عندما كانت كلمة تخليق تُستَعمل من أحد المتحدثين في الرواق، سرعان ما كانت الحناجر تُردّد شعاراً يثير الاستغراب وأحياناً الضحك لأن صيغته لا تخلو من تلفيق: التَّخليق تَخليق تخليقْ ٨ بلا تأخير ولا تعليق).

وكنت أريد أيضاً أن أُذكّركم بالخطاب الشهير الذي أُلْقيَ من خلف الشاشة الصغيرة، الملوَّنة، منذ أكثر من ثلاثين سنة ليقول للملإ بأن من حقِّ راعي شؤون الأُمّة أن يُضَحّيَ بثُلُثها في سبيل أن يَعيشَ ثُلُثان بمَنْجاة من القلاقل وشغَب المطالبين بالخبز والشغل.

إلاَّ أننيَ خشيت أن يُقالَ لي بأن ذلك يندرج في الماضي.

لكن، كيف أُقنع نفسي بأنه من الممكن، بل من الواجب، أنّ

أَضَعَ بين قوسيْن، ثلاثين سنة عايشتُها، كانت الأقلية المحظوظة خلالها تَنْهب خيرات البلاد وتَسُوم العباد سُوءَ العذاب، وعصابات المنتفعين تَمُشّ عظامَ المستضعفين . . . ثلاثون سنة خَمْخَمَ خلالها المخَمْخمونَ، كثُر فيها المسجونون والمنفيون، ورغم ذلك يقال لنا : لنَنْسَ الماضي ولنبدأ صفحة بيضاء، وشعارنا دائماً أبداً : إغناء الفقير بدون إفقار الغنيّ!

وكنتُ أريد أن أحكي لهم ما حَكاه لي صديق أثق فيه، فقد قال لي : هل تعلم أنني وُلدتُ في نفس الشهر الذي وُلد فيه وزير الداخلية السابق؟ أنا، كما تعلم، أفنيتُ عمري في الدراسة والتعليم والنضال وهو كان يلاحق المواطنين ويُحصي أنفاسهم ؛ فكان جزاؤه أن أصبح ثرياً ثراءً فاحشاً وتمتّع بالسلطة المطلقة أزيد من عشرين سنة . . . أليس من حقّي أن أُطالب القضاء بأن يقارن بين رصيدي البَنكي وبين الملايين والعقارات والأملاك التي يدّخرها في داخل البلاد وخارجها؟ وتصوَّر أنه عندما تمّ الاستغناء عن خدماته، أبى رأس حكومتنا إلاّ أن يحافظ على أناقة السلوك، فأقام حفل تكريم للوزير المكروه. وفعلاً حضر إلى الحفل رافع الرأس، مطمئناً إلى أن ما استحوذ عليه لن يُوضع موضع محاسبة أو مُقاضاة. ويروي بعضُ الظرفاء أن المشرف على تنظيم الحفل بحث عن المطرب إبراهيم العلمي ليُغني في حفلة وداع الوزير أُغنيته الشهيرة : «يا السَّاخي بيا والله بكْ ما سْخيتْ» لكنه تَبيَّن أن المطرب التَحقَ بالرفيق الأعلى منذ سنواتٍ !

إنما تلك ذاكرة الماضي والحاضر رَازحُ بثقْله، والسفينة تَترنَّح

والمتحدثون حريصون على تبيُّن طريق للفعل الذي يُهَيء مستقبلاً مختلفاً. وأنا -وآخرون ربما- مَنْ يُقنعنا بأنّ هذه هي السبيل إلى مُجاوَزَة الماضي؟

وخشيتُ أن يلتقط صاحبنا المعتصم هذه الخواطر التي كانت تسري في تلافيف ذهني المستسلم للحلم سَرَيَانَ الدَّم في العروق، فينطّ ليعلِّق على خواطري حسب طريقته المعهودة: «وماذا تريدنا أن نفعل أيها الروائي الذي تأسَرُه أروقَةُ الماضي ومسالك الذاكرة وبياضات النسيان؟ أُذكِّرك بما قاله القَدماء والمحدثون: تحرّكوا تُرْزَقُوا. ولا شيء هو غايةٌ في ذاته. ولا شيء يظلُّ على حاله. لا تُثَبِّت بصرك على الفَرحين بمناصبهم، بابتساماتهم البَلْهاء أمام كاميرات التلفزيون وَهُمْ يتفوَّهون بكلمات عادية يظنونها آيات أوْ آراء خارقة . . . لا تُلْقِ بالاً إلى لعبة التلميعات وتحفُّزات «الذئاب الفتية» المتسابقة إلى احتلال المواقع . . . كل هذا عابر في نظري، بل طبيعي؛ والأهم هو ما سيأتي بعد ذلك عندما نصل إلى «حزّ مزّ» ويُطلب منّا اختيار المستقبل، الآن نَحن فقط نُهَيِّء الانتقال إليه، لذلك أرجوك أن تسترخي قليلاً وأن تتفرّج على وجوه الحاضرين والحاضرات وأن تتذكر ملامحهم فقد يفاجؤنك بما لم تلامسه خواطرك الآن! شعار المرحلة يا عزيزي هو: ادخلوها واستمتعوا بخَيْراتها وأنصتُوا إلى خُطَبها بَعْضكم لبعض وكيٍّ ونَصير. ثم إنَّ هَذه قاعدة أساسية للأبراج الشفافة المشعَّة، وبُرْجنا لا يجوز أن يَشذَّ عن القاعدة».

ظريفٌ هذا المعتصم، رغم كل شيء. يستطيع أن يقول الرأي ونقيضه بنفس الجدّية وقد يقنعك بأنه لا ينطقُ عن الهوى.

لكن ما كان يُثقل صدري وأنا أُجيلُ البصر في جموع الرُّواق وأُنصت إلى الأصوات والشعارات، هَو قلق خفي لا أكاد أعثر على مصدره. علامات كثيرة تُشير إلى أن الفترة التي أعيشها تحمل في ثناياها لحظة تحوُّل تَوافرتْ أسبابُه منذ عقود، لكنها تظلُّ بالنسبة لي لحظةً ملتبسة، متكتِّمة. وما تَحْبَلُ به يظل غائم القسمات لَا يقوى على أن يُجْرُفَني فأنْسى التحفُّظات وظلال الفشل، الذي عاينته منذ 1963 ثم 1967 ثم 1981 وما تَلاَحَق من سنوات. ولم أعد أجدُ ما يشدني إلى استعادة التفاصيل والجري وراء تحديد على منْ تَقَعُ مسؤوليةَ التعثّر وتضييع الوقت والعُمر. الأهم من ذلك، هذا العزوف القوي الذي بتّ أستشعره أمام كل خطاب يدعو إلى الانغمار في الفعل أوّلاَ ثم انتظار أن ينجلي الضباب وتتَّضح معالم الأُفقَ. وهؤلاء الذين تضع يدك في يدهم أوْ تستهدي بخطواتهم كيف لك أن تطمئن أليهم؟ أوْ كما تساءلت هُولْجا في «بَعْدَ السُّقوط» لآرثر ميللر:

«ولكن كيف لإنسان أن يكون واثقاً من صدْق إنسان آخر؟».

وعندما أقرأُ جوابَ كُونْتَن على تساؤل هولجا، تزداد حيرتي:

«بَنَى هذا مؤمنون وربما كان هذا هو المخيف، وأنا أقفُ هنا أعْزَلَ مجرداً من الإيمان. بوسعي رؤية القوافل العسكرية تَسْحقُ هذا التَّلَّ وأنا في بَاطنه لا أحد يعرف اسمي».

أُحسُّني كأنني أسيرُ على شفا بَرْزَخ يَنقُلني من طمأنينة

الإيمانات إلى هوّة الشكوك والأسئلة التي تسْعى إلى إعادة ترتيب فوضى الذات المتمرّدة. وأجدني وجهاً لوجه مع اللّص الشّيْخ ذي الوجه المدوَّر والعينين الذكيتيْن المتَفَطّنتيْن. أستحضر منطقَه الجذريّ الكاسح وهو يمجّد الخيانة منْ منظوره الخاص لأنها تعني، عَنده، التخلي عن عالم مألوف لمدّ جسور مع هوّة أو فضاء داخلهما يمكن أن نستعيد أنفسنا أو أن نُنْهي أيامنا في العُزلة أو أن نلتقي بنقيضنا لنعقد الصلةَ به . . . لا يهمّ أن تكون تلك الهوّة مثاليةً أم لا، الأهم هو القَطْع مع ذَلك العالم الذي وُجدْنا فيه وكأنه طبيعة مُلازِمةٌ لنا.

فاجأني مرّة بسؤال: لماذا تهتمّ بالسياسة؟

- لأُصحّح اختلالات المجتمع.

ابتسم ابتسامتَه الساخرة: وَفْقَ أي مقاييس؟ أضاف بعد قليل: يصعب التوفيق بين الفرد والمجتمع. لا يوجد إنسان نَقُول عنه إنه كَائنٌ اجتماعي تماماً، لأنه يمتلك تاريخاً شخصياً وتاريخاً عائلياً يتعَارضان مع نظام المجتمع وأخلاقياته. لا أظن أنَ هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الفرد سيُطبّق قوانين المجتمع وأخلاقه عن قناعة حتى ولو بلغ المجتمع درجة قصوى من الطوبوية . . . يعود اللص الشيخ إلى عزلته وأظل في مهبّ الحيرة والأسئلة. لم أفكر من قبل في العلاقة بين الذات والغيرية على هذا النحو. كانت قوة الأشياء تجعلني أفترض ضرورة تَرابُط الذات بالآخرين، وكان الفعل السياسي يعني أيضاً تغيير ما هو قَائم باتجاه مَحْو الإرغامات العائقة لاكتمال حرية الذات وتفتّحها. كنت أفترضَ وجود أفق للتوافُق وتعديلِ مسار التاريخ الخاص ومسار مؤسسات المجتمع. الآن يبدو

لي أنه أُفقٌ مهزوز هو الآخر، لأنه ملغوم بتعارض لا يُغالَب بين الحياة الشخصية المتواشجة مع الرواية العائلية ورغبات الجسد واستيهاماته ومكنوناته، وبين توجُّه المجتمع المشدود إلى القيم الموروثة ومصالح المتحكمين والمعايير الوضعية. كيف يطمئن الفرد إلى أنه لن يقع، ذات يوم، تحت طائلة الظلم باسم عدالة تخطىء في تَجريم الأبرياء؟ وقد يقضي سنوات مديدة من عمره وراء الجدرانَ، ثم تَنْتَبِهُ العدالة إلى خطئها فتطلق سراحه مع كلمات اعتذار.

وأحسست أن يداً تُلامس برفق كتفي وسط مَأدُبَة الكلام والتصفيقات. استدَرْتُ فوجدَت ف. ب بابتسَامتها الرقيقة الغامضة ووجهها الممعن في البياض، تدعونَي برأسها إلى خارج القاعة. مَشَيْنا خطوات قليلة باتجاه الساحة الواسعة وسمعتُها تقول معاتبة: أنا دائماً بانتظار زيارتك؛ وتلعثمتُ وأنا أنتحل الأعذار لتأخُّري، وأشرتُ إلى ما أستَشْعرهُ من حيرة واضطراب خلال الأشهر الأخيرة؛ وقلت لها بأنَّ لديّ إحساساً عارماً بأن أشياء كثيرة تنتهي ولكن لا أحد يريد أن يقول ذلك بوضوح. قاطعتني ساخرة:

– يقول لمَنْ؟

– لمَنْ يرَيد أن يسمع.

زادَت ابتسامتها افتراراً فتنبّهتُ إلى أنني منفعل لا أتحكّم فيما أقوله. وعادت تسألني: لكن ما الذي ينتهي؟

– لعلّها القدرة على رفض الأمر الواقع؛ أو هو ذلك الحرص

على معرفة الحقيقة الذي تَوارَى وراء التَّراضي الذي أصبح شعار المرحلة؟

بعد فترة صمت، قالت في تُؤَدَة وهي تَتَلَفَّظ كلماتها ببطء: لا أستطيع أن أغامر بكلمات مثل هذه. أنا أحس أن أشياء تَنتهي وأننا نَنْتَهي معها. ولكي أكُونَ دقيقةً أقول: أنا ف. ب أنتهي معها فيما يستمرُّ العالم الذي يعرف دوماً كيف يعثر على أوهام مُحْفزَة ولغة مُلائمة لتَنْشيط الحركة وجَعْل آلات الضَّخِّ تستأنف الدَّوران.

شُعورنا بانتهاء ما ينتهي مُرتبط بعلاقتنا بالأحلام والأفكار والاستيهامات التي هي النَّابض المحرِّك لأعماقنا. أنا، مثلاً، عشت حياتيَ بالطُول والعَرض: أحببتُ أكثر من مرّة، ضاجعتُ مَنْ استطاعَ أن يجذبني؛ ناضلتُ وأبْحَحْتُ صوتي في الجدالات والخُصومات. شربت كثيراً ورقصتُ حتّى الفجر أياماً لا تُحْصَى. وكان شعورٌ يتملّكني، آنئذ، وهو أنّ الأشياء كلها في بدايات مُتَجدِّدة... كيف حدَث أنني أصبحتُ قابعةً في غرفة معتمة، مقتنعة بأنَّ ما كان يشدّني إلى الدنيا ويُشْعل وجداني قد انتهى، أو هو على وَشْك الانتهاء؟ قد نتكلّم عشراتَ الأيام والليالي بحثاً عن الأسباب الكامنة وراء ما حدث لي، لكن، لا أظُن أنك ستجعلُني أضَعُ الأُصبع على اللحظة التي قادتْ قدميَّ إلى سكَّة الانْحدار.

بعد فترة صمت:

– ربما يوَجد الخلل بداخلي لأنني لم أتعوّد على أن أعيش في ما أخَالُهُ زمنَ انْحدارٍ، بينما الناس يعتبرونه وجهاً آخر لزمن واحد.

لا أحد علّمني أن آلفَ الوقتَ العادي المطبوع بالسأم واللاّمعنى وَ«قلّة النفس».

صمتتْ من جديد. بحثتُ أنا عن كلمات تُواصلُ الحوار إلاّ أن ذهني لم يُسْعفني. قالت بعد أن امتدَّ الصمتُ بيْننا:

الآن أدرك أن إيماناتي كانت تستغرقُ أمداً محدوداً. تَنْبَثِق، أوّلَ الأمر، مُتدفقة، مُتأججّة، ثم تبدأ تَخْبُو كالشعلة المعرَّضة لهبوب ريح مَتواصلة. أغبط الذين يحميهم إيمانهم من الفُسُولة والارتياب واللاَّطمأنينة. في البدء عشتُ الانتقال منْ أيمان إلى آخرَ باندفاع المُغامرة المكتشفة، ثم أصبحت نَهْباً للخَوف وأنا أنتظر اهتزاز ما اعتَصمتُ به . . . هل هذا هو ما يُذْكِي بأعماقي قَلقَ النهاية والشعور المسبَق بالموت؟

عادت إلى الصمت ونحن نسير باتجاه الساحة مُبتعديْن عن ضوضاء القاعة. كنتُ أتمنى أن تستأنف كلامها. بعد فترة، تنهَّدت وهي تُتَمْتم:

– أُريد أن أقول لك شيئاً.

– نعم؟

– ما نعيشه من ضيق وألم الآن، هو جزء من سعادَة مؤقتة. أنا سأرحل عن هذه الحياة قريباً وأنْتَ ستستمر بعدي. هذا ما يجب أن نُدركه جيداً وأنْ نُدمجه في هذه الأوقات التي نَخْتَلسُها عندما تزورني بغرفتي أوْ عندما آتي إليك في المنام . . . ».

تباطأتُ وأنا أفتح عيني لأجَدني مُمدَّداً على اللّحاف المقابل للسماء عَبْرَ مستطيلات الزجاج التي تفصل الغرفة الممتدّة على

الجانبيْن ؛ وأنغام كونسرتو «كولن» يعزفها كيْط جاريتْ برشاقة مُذهلة ، والوقت يخبو على أديم تلك الظهيرة الرَبيعيَّة المطوطة .

أفتح عينيَّ ببطء ومُخيلتيَ مشدودة إلى ما رأيتُ وسمعت . كنتُ أودُّ أن أقول لـ : ف . ب شيئاً عن استمراري في الحياة ، عن تلك اللحظات التي تُشرق ، على غفلة مني ، لتوهمني بأن الامتلاء الداخلي اكتمل وفاضَ على ما يحيط بي . لحظات تجعل ارتجاجات كهربائية تسري في المسامِّ والنُّسوغ لتُلغيَ كلَّ ما هو غريب عن فرحة وجودية شاملة لا أُميِّز ، خلالها ، بينَ الأشياء والعناصر . وكُنتُ أريد أن أقول لها إن مصدر تعاستي أنها لحظات قصيرة بينما مواعيدها متباعدة أوْ شبه مستحيلة . وخلال انتظاري ، أكون كمَنْ يجرُّ قدميْه وسط طابور طويل ، مُتْعب ، ملُول من كثرة تَشابُه الأوقات والشخوص والأحاديث . وكلما لاح لي ما يَعدُ بخروج محتمل من مألوف الوجود ، أسرعتُ لملاقاته ، متناسياً ، احتمالات السراب والخيبة وقَدامَةَ المشاعر . الخَرْجة ، الطَّلعة ، الوثْبة ، النُّزوح ، السَّوْرة ، السَّيَحان : جميعها كلمات تمتزج ، لديَّ ، بالاستماع إلى الموسيقى ، بالكتابة ، بالقراءة ، بالتسارِّ مع محبوب أو صديق ؛ إلاَّ أن الثِّقل الرابض بداخلي لا يُسعَفني على الانفلات لأُغادر دائرةَ الدنيا ووَثنيَّتَها ، فيتعاظم الإحساس بجُدْران سجن وَهْميّ يُصاحبني . ألهذا يبدو الموتُ مغرياً باحتمالاته غير المرئية ، غير المتداولة في تجاربنا التي تطمس جَذْوتَها الكلماتُ؟

.5.

- هل نَحْنُ في آخر الوقتِ؟

- بل نحن أوّله .

- والبريد المسافر بيني وبيْنكِ هل تحمل الريحُ أمطارَه؟

- أشْتهيكَ كما قد قَضَى الطميُ بالعشق .

- هذا انهيارُ دمٍ في دَمٍ وانفجارُ السماوات بالماء

هل تَرحلين

أراحلةٌ أنت؟

- ما هَمَّ والوَقتُ ليس لنا الآن!

محمد عفيفي مطر

في شهر أبريل الماضي من هذه السنة، ركبت القطار إلى الدار البيضاء لزيارة ف. ب. كانت أشياء كثيرة تشغَلُني، وكان حضورُ طيْفها في تلك المنامة وفي حوارات أحلام اليقظة التي رافقَتني أثناء حضوري ذلك التجمع البابلي الفريد، يستحثُّني لأبادر إلى خُلوة المكاشفة والبوح، معها.

في مقصورة القطار، لم أتمكن من قراءة الجريدة، لأن شاباً تَبْدُو عَلَيْه الجدية ونبرة الوصاية كان يتحدث إلى فتاة سمراء تصغره بما لا يقلَ عن عشر سنوات، وكأنه يتعمد أن يرفع صوته ليسمعه مَنْ يوجدون بالمقصورة. كان يقول لها ما معناه : أنا أعرف مصلحتك ربما أكثر من ما تعرفينها أنت. الدنيا مْخَلْطة وبنادم اللي ما يَسْوَاش كثير. ومنذ رأيتك عرفت أنك بنت ناس ولذلك تجرأت وكلمتك وقلت لك إنني أريد أن أتحدث إليك في القطار. ولا أخفي عليك أن مستقبلاً زاهراً ينتظرني في الملاكمة لأنني مُصمِّم على إحراز البطولة في وزن الريشة. وأنا أريد أن أحميك وأن أطلبك للزواج لنبني عائلة هنيَّة لأنني بصراحة لم أعد أثق ببنات اليوم . . . وكانت الفتاة تبتسم وتحاول أن تفْهمَه بأنها لا تعرفه وأنها ما تزال طالبة؛ ولكنه كان يقاطعها ولا يترَك لها مجالاً للتعبير، مُلحّاً عليها أن تعطيه رقم الهاتف ليتصل بها في الغد . . .

المسافة الفاصلة بين محطّة الميناء وساحة ڤيردان قصيرة. آثرت أن أقطعها على الأقدام لأفكر في ما يمكن أن أحكيه لـ : ف. ب لو طلبت مني ذلك مثل ما فعلتْ في المرة السابقة. تهاطلت الصور

والأحداث على ذهني ولم أتمكن من ترتيبها أو انتقاء ما يناسب منها. قررت أن أترك ذلك لتلقائية الحديث. وكنت قد وصلتُ إلى باب العمارة فصعدت محتاطاً ثم نقرتُ الباب النقرات المعتادة غير أنه لم ينفتح. كانت الساعة تقترب من السادسة مساء. انتظرت قليلاً ثم عاودت النَّقر وَطَالَ انتظاري. استعملت جرس الباب فلم أسمع سوى صدى رنينه. نزلت إلى الشارع وتطلعت إلى نافذتها فوجدتها على غير المألوف، مُشْرعةً. قلت ربما قررت الخروج للترويح على النفس أو لزيارة صديقتها حليمة. سأمضي الليلة بأحد الفنادق ثم أعود لزيارتها صباح غد. وآثرتُ أن أتمشّى عبر الشارع قبل البحث عن فندق.

سرعان ما استَظلَلْتُ بالمناخ الذي تَغْمُرني به الدار البيضاء خلال زيارتي لها: فضاء لا يكشف خَباياهُ مرةً واحدة. ودائماً هناك إحْساسٌ بالمجهول الذي يتربّصُ بيَ في مُنْعطف، أو عند باب عمارة أو داخل مقهى. يضاعف من هذا الإحساس الشعور بالغُفْلية وسط امتداد الشوارع وكَثْرة الخَلْق. تقريباً هو نفس الشعور الذي يُلازمُني وأنا أتجوَّل بإحدى العواصم الكبرى. تَتَيقَّظ الحواس. يَتَخَايَلُ خَوْفٌ لا مُبرِّر له قبل أن أستسلم لذلك التيار الجارف الذي يُدَغْدِغُ الحواس ويستفزها مثل دفقات حمّام «جاكوزي» القوية حين تُهاجِم الجسد.

وتذكرت وأنا أمر بالقرب من ضريح سيدي بَلْيُوط، أول مرة زرت فيها هذه المدينة وعمري لم يتجاوز التاسعة. كنت رفقة خالتي

كنزة، جارتنا التي تحولت إلى ما يشبه الأم. من خلالها وبفضل شخصيتها القوية وعلاقاتها العائلية تَوسَّع مدى الرؤية والحركة لأنها كانت تستدعيني أو تستدعي أخي لنرافقها في زياراتها للأحباب بفاس أو مكناس أو الدار البيضاء. وتلك المرّة، كنا متوجهين ومعنا زوجها وابنها لقضاء بضعة أيام عند الفقيهة لالّة خَدّوج ابنة عمها التي كانت تتردد من حين لآخر على الرباط. كانت لا تخلو من قسوة فقهاء الكُتاب إلاّ أنها في البيت والسهرات العائلية تستعيد رقة أُنثوية وهي تحكي القصص والنوادر أو تنتقل من تجويد القرآن إلى الغناء. وأذكر أنها كانت تسكن بالفوقي بينما عائلة يهودية تسكن بالسفلي. وفُوجئتُ كثيراً وأنا أراها تخاطب جيرانها بتلقائية وتتبادل معهم الضَحك والتعليقات. وفي اليوم التالي لوصولنا، أرسلت الجارة اليهودية صحناً كبيراً من «السخينة» التي لَحَسْنا أصابعنا من ورائها. وقد ضحكت الفقيهة كثيراً وهي تستمع إلى خالتي كنزة تحكي لها عن الرجل الملتحي الذي كان معنا في حافلة النقل العمومي وكان يصرخ كلما اهتزت الحافلة أو تمايلتْ بقوة: أسيدي بَلْيوط طالبين الشفاعة! وسرعان ما بدأ الركاب يرددون بتقليد ساخر نفس الاستغاثة كلما تمايلت الحافلة:

احنا في عارك أسيدي بليوط.

منذ الستينات بدأت أكْتَشف ملامح من كيان الدار البيضاء العملاقة. لكنها تظل في مخيلتي ممتدة بلا حدود وأظل أُخمن أن ما التقطه، خلال زيارتي وإقامتي القصيرة، هو مجرد ظاهر يعلن عن

باطن مثير، غرائبي. وما أزال أستعيد، كأنّما بالأمس، تطوافي عبر الحانات والمقاهي في حيّ المعارف رُفْقَةَ أصدقاء من الشعراء والكتاب والمثقَفين. كان هناك إسبانيون وبرتغاليون استوطنوا الحيّ عندما هربوا من دكتاتورية فرانكو، واستطاعوا أن يطبعوا ذلك الفضاء بالمناخ الإسباني المرح، المقبل على الحياة بنَهَم، الذي يُحوِّل المقاهي والمطاعم إلى لقاءات مفتوحة تزهو بالكلام الصاخب والقهقهات المفرقعة وكؤوس الراح و«الطَّابَّاس» والضوضاء الوَنَّاسة. اشربْ، اكرعْ لتواجه شساعة الأحلام المرافقة لأول الطريق، ووطأة كابوس الاستبداد غير العادل الذي كان حريصاً على تركيع العباد. كانت تلك الجولات في محيط حي المعارف المضمَّخة بعطر الإسبانيين تنحت في ذاكرتي صورةً مُزْدَهِيَةً، شامخة للمدينة التي أنعشت آمالنا أيام المقاومة. ومنذ ذاك، ارتبطت الدار البيضاء في نفسي بالمجهول المفاجىء، بالمَرْصَد الكاشف عن أشياء وسُلُوكات تتحول في رحابها إلى دلالات رمزية. تباعدت اللقاءات ولم تَبْهَت رمزيتُها في خاطري. وقبل خمس سنوات، استدعاني صديق رسام لحضور تدشين معرض جماعي أشرفت عليه مؤسسة مالية ضخمة يملكها أصحاب «المصالح الحقيقية» المنتمون إلى تلك الطبقة العريقة التي استفادت من الاستقلال وآثرت أن تبقى في منطقة الظل لأن الرياح كانت تهبّ يميناً وشمالاً وتعصف بمنْ يَجْرُؤُ على أن يكشف عن وجهه. الآن وبعد نصف قرن من الاستقلال، هَا هُمْ يعلنون عن نيَّتهم في

أن يكون لهم وجود اجتماعي وثقافي يُسيِّجُ طبقتهم. خلال حفلة التدشين، خُيِّل إليَّ كأنني أرتاد قاعة عرض بباريس: نساء جميلات بالديكولتيه، رجال يتراوحون بين أناقة رزينة وموديلات جريئة، وموائد تعرض مشروبات روحية وعصائر ومزَّات باردة وسُخْنة، والإضاءة تنْبعث من الزوايا والسَّقف لتُبْرز تضاريس اللوحات. الكُلُّ يَبْتسم، والأحاديث سَالكَةٌ تُعلن فعلاً عن حَدَث غير مسبوق. وتلقَّفني صديقي ليُقدّمني لبَعض الشخصيات النافذة في عالم التجارة والمال والتي كَنتُ أسمع عنها كلّما احتفل واحد منهم ببلوغه رُتبةً جديدة في سُلَّم المليونيرات. وعند انصرافي من المعرض، قلتُ لصديقي: «أنا مَمْنُونٌ لك لأنك جعلتني أتعرَّف على مَنْ كنتُ أعتبرهم أباطرةً غير مَرْئيِّين: السِّي 17 مليار درهم، السِّي 30 ملياراً، السِّي 50 ملياراً.. أولئك الذين كنتُ أسمع عنهم من خلال إعلانات عن شركات كبرى، أو أراهم عبر ناطحات سحاب يملكونها. وكانت الإشاعات والمبالغات تُضبِّب صورتهم؛ لذلك أنا مسرور بخروجهم - أو بعضهم على الأقل - من دائرة الظل إلى قاعة الأضواء...».

الضوء والعتمة مُتلازمان عندما أستحضر أحوال المجتمع في العقد الأخير. أفعل ذلك انطلاقاً من معاينات وملاحظات تستقر في الذاكرة لتؤكد لي أن منطقة العتمة كُتلةٌ تتَّسع سنةً بعد سنة، فاتحة أذْرُعَها لاسْتقبال الملايين المعدمين، فيما منطقة الضوء تتقلص أكثر

حول آلاف المحظوظين الماسكين بشرايين المال والصفقات والعَقَار وامتداداتها في مجالات السلطة.

وخلال سهرة مع صديق يعمل بمصلحة الإحصاء، سَرَدَ عليَّ أرقاماً مُذهلة تؤكد الانطباعات التي تكوَّنت لديَّ. وأضافَ ملاحظة زرعتْ في نفسي غير قليل من الخوف. قال الإحصائي الصديق بأن هذا الانشطار داخل المجتمع يكتسي الآن مظهراً اجتماعياً يشخّص تحوُّلاً بُنيوياً عميقاً. وهو شيء طبيعي إذا تذكَّرنا الهجرة المستمرة من البادية إلى الحواضر، واتساع رُقعة البناءات العشوائية المعزِّزة للكاريبرات ومُدن القصدير التي تُطوِّق معظم المدن في شكل أحزمة تَحُدُّ فضاءات تعجُّ بالعنف، والبلْطجة وقانون الغاب. في فترة أولى، يُضيف، كانت تلك المساكن العشوائية ذات شفافية قابلة لنَفَاذ دعوة المتشدِّدين التَّماميين، لكن «تطور» الأوضاع جعلها تَنتقل إلى عنف مُنظم من نوع آخر، يتوخّى الربح ويفرض الإتاوات، ويدير شبكات الدعارة وبيع المخدرات. أي نعم، الفاعلون هم من صُلب المهمشين لكنهم يُتوِّجُون أنفسهم قُيَّاداً يحلبون سكان الأحياء العشوائية وينشرون قانونهم لأن قوات الأمن لم تعد قادرة على مواجهة هذا العنف المتوحش؛ بل إن التعايش والتعاون بين السلطتيْن مُسْتَحَبٌّ. . .

ربما كان ذلك الصديق يُبالغ، لكنني لا أستبعد ما حكاه، لأن هذا العنف يتجنَّب الطروحات السياسية التي أثارت من قبل ردود فعل عنيفة من لَدُنِ الدولة، ويختار شكلاً اجتماعياً من الفوضى

المنظّمة يُتيح لبعض المهمَّشين أن يصبحوا داخل تلك الفضاءات قامعين بدورهم للمُستضْعفين. قد يكون في ذلك إضعاف للدولة، لكن الله غالبَ، الإمكانات محدودة والسجون امتلأت . . . طبعاً، هذا لا يمنع الخُطب والبيانات الرسمية من الاستمرار في تأكيد هيبة المخزن والقوانين من وراء ميكرُوفُونات الإذاعة والتلفزة وخلال التصريح بالنوايا أمام المحافل الدولية.

ضوء وعتمة، ومن خلالهما يتراءَى لي طيفُ بن عريش وهو يُخبرني أنه يُهيء نفسه لاحتلال موقعه في ثَنايا تلك الفضاءات ليَمْتلك وضعية مشروعة لا تتعارض مع سُلطة المركز . . .)

كان المساء قد تقدَّم، وقَدماي تَنْجرَّان بِصعوبة، فاتجهتُ للبحث عن فندق.

في الغرفة، بعد العشاء وأنا أُقلِّب قنوات التلفزيون، وَقَعَتُ على فيلم «الأبديةُ ويَوْمٌ» للمخرج اليوناني تيُو أنْجيلوبولس. انجذبتَُ إلى الشريط الذي يحكي عن كاتب مريض انْتبه إلى أنه أضاع سرَّ الحياة فقرَّر، مثل شاعر من القرن التاسع عشر، أن يَشْتريَ كلمات يُعبّر بها عن مشاعره. في الأثناء، يُقابل صبيّاً هارباً من ألبانيا وتنشأ علاقة وطيدة بينهما. وكلّما أراد الكاتب أن يرحل لا يَقْوَى على تَرْك الصبيّ. يواصل جولتَه مشاهداً ومُتذكِّراً: زوجته المعشوقة الراحلة، ابنته وزوجها الأنانيان، البحر الحاضر باستمرار. والطفل المنهمك في مشاهدة ما حوله . . . لكن ما يؤلم الكاتب البطل هي تلك العلاقة المستعصية مع

الزمن وما يُخلِّفُه في الجسد والذاكرة من وُشُوم. وفي لحظة مّا، قبل نهاية الشريط، يقول بلَوْعَة، ما معناه: لماذا لا نُحقّق في الدنيا ما نريد؟ لماذا الأشياء واللحظات الجميلة تنفلتُ دوْماً من بين أصابعنا فنرتَدُّ إلى البحث عن عبارات وكلمات لِنُنَقذَها من حبائل النسيان؟

لم يُقربني الفيلم من النوم. عدت إلى التفكير في ف. ب، وفي الغُربة التي حَاصَرَتْني وسط هذه المدينة الشاسعة منذ طرقتُ البابَ ولم أجدها. وفي متاهات الأرَق لاحت لي في ثنايا الذّاكرة إحدى زيارتي لموسكو في إبانَ عهدها السوفياتي وقلتُ هذا ما سأحكيه غداً لـ: ف. ب. سأحكي لها عن الثلج الذي كان يكسو شوارع موسكو الفسيحة ويُجلّل قُبَبَ الكرملين والأشجار السامقة العارية، وأنا ومُترجمي ميشَا نتجوّل على الأقدام داخل ملابسنا السميكة مُحتَميْن بالقبعتيْن الرَوسيتيْن التقليديتيْن. كان ميشا يتحدث بعربيةٍ فصيحة جيدة ويشرح لي المشروع الاشتراكي الذي حرّر بلاده من استبداد القياصرة واستهتارهم. وكان يحلو لي أنْ أُعاكسه مُلمّحاً إلى أن البيانات شيء وما نراه في واقع الحال شيء آخر؛ فكان يبتسم بهدوء ويُعاودُ الدفاع والشرح، فأُمْعنُ أنا في نكإ الجراح:

- افتح عينيك يا ميَشا. كل شَيء هنا يسير بالرشوة ووفق تراتبية الأجهزة. ألم ترَني أمس كيف دَسستُ عشرةَ دولارات لنَادلِ المطعم ليسمح لَنا بالدخول رغم أننا تأخّرنا عن الموعدَ؟

يردُّ عليَّ ميشا وهو يبتسم وقد احمرَّت وجنتاه :

- أنت يا أستاذ تبحث فقط عن السلبيات وتنسى الذين ضَحَّوا من أجْل أن نتعلّم ونتطبَّب مجّاناً. وفي الواقع أنت الذي تشجّع الرشوةَ عندما تُصرُّ على شراء الكافيار والفودكا من النادلات بفندق «راسيا».

وكنت أهزُّ رأسي موافقاً مُرْسلاً ضحكةً قوية، قائلاً :

- إذن أنا أقوى من المبادىء الاشتراكية لأنها لا تَعصم من الرشوة!

وأُحسُّ أن فُتوَّةَ عُمره قد لا تتحمّل قسوةً في النقد مثل تلك التي كنت أُبديها، فأسعى لمصالحته موضحاً له بأن الفُروق بين النظرية والتطبيق مُعْضلة إنسانية لم يُعثَر لها بعد على علاج. وَدَعَوْتُه، ذات مساء، إلى مطعم ومرقص في آن، يفتح أبوابه إلى حدود الحادية عشرة ليلاً وبعد ذلك يُطلب من الزبائن الانصراف وتُغْلَقُ الأبواب. بين طبق وآخر، نقف لنطلب من فتيات أو سيدات مُراقَصتنا ثم نعود إلى المائدة لمتابعة العشاء. الجميع يأكلون بنَهَم ويَعبُّون الفودكا خالصة ويتسابقون إلى حلبة الرقص قبل أن يُعلن الجرسُ ساعة الإغلاق. متعة جماعية يَزيد من قيمتها أنها محصورَة بوقت معيَّن. وعندما خرجنا إلى الساحة الممتدَّة المجاورة للمطعم، كان الثلج يلمع تحت الضّوء الشَّحيح لبعض المصابيح المتباعدة المعلقة على أعمدة حديدية. كان الانتشاء يَسْري في أوْردتنا، وكنَّا نتبادل التعليقات والضحكات وأنا مستغرب من أن أتكلَمَ بالعربية

وسط طبقات الثلج غير المألوفة لديّ. بعد أن توسَّطْنا الساحة وَجَدْنا رجلاً مخموراً يُرتّل بصوت مرتفع عبارات لا تخطىء الإذن موسيقاها. طلبتُ من ميشا أن يترجم لي ما كان الرجل يتلوه مُتوقِّفاً من حين لآخر عندما يثقل رأسه فيغفو بُرْهةً قبل أن يستأنف:

«أيها الروسيّ الأبيض
يا سليلَ امبراطورية بطرس الأكبر
لن أَرَاك
رحلتَ
تَركتَنا للفراغ، للوجوه العسكرية الصارمة
للڤودكا التي لم تَعُدْ تُدوِّخُنا
رحلتَ ومعك تراتيل الكنيسة المؤثرة
والإيقونات المطمئنة للوجْدان
مُجرد جُرْذَان نحنَ
نفايات تَلْعقُ لَسَعَات البرد
مَنْ مَسامِّ الثلج
أَيها الروسي الأبيض
يا سليل القياصرة الأمجاد
لماذا رحلت؟...».

وسألتُ ميشا عمّا إذا كانت قصيدةً معروفة، فقال لي بأنه لا يظن وأنه يُرجِّحُ أن تكون من تأليف الرجل السكران لأن ما شربه من ڤودكا كفيل بأن يُنطقِ الصخرةَ شعراً.

وسأحكي لها كيف أنني طلبتُ من ميشا، ذات يوم، أن نزور إحدى الكنائس الأورثوذكسية لننْصتَ إلى القُداس، فرحّب بالفكرة واتفقنا على موعد الزيارة. كانت الكنيسة صغيرة، إلا أنها ممتلئة عن آخرها، وعلى الجدران إيقونات لها ملامح تكتَنزُ تَعبيرات حزينة، وصورة المسيح المصلوب تتصدَّر الواجهة المرتفعَة. معظم الحضور من النساء يَضَعن على رؤوسهن شالات صوفية ذات ألوان بيضاء وسوداء. وَقَفْنَا بآخر القاعة فيما تراتيل القدّاس تعلو مُتناغمة بنبرات مؤثرة. كنت أُصغي وأُجيل الطرف في الوجوه المنهمكة في الانشاد. وألتفتُ إلى ميشا فوجدتهُ يُنشد بدوره وهو يبتسم. لحظات ظلت عالقة بذاكرتي. عندما خرجنا من الكنيسة، قال لي ميشا: أرأيتَ كيف أن النظام الاشتراكي لا يُصادر الدين؟

ميشا كاتَبَني لفترة ثم انقطعتْ أخباره. لكنني أستحضره دائماً مُبتسماً، مُصراً علىَ الأمل. وأستحضر، بالأخص، موسكو يكسوها الثلج وكأنها إيقونة مغموسة في البياض، عارية من الأصباغ وأضواء النيون والإعلانات المتلألئة. غير أن فضاءَها يظلُّ غامضاً رغم بياضه. فضاء ينطوي على مفاجآت واللقاءات التي تتمُّ بين أرجائها، تترك أخاديد على الجسد ومشاعر مُتجذِّرة في الأعماق.

سأحكي لها، أن موسكو، بعيداً عن تَبْويقَات الجنود المَزْهُوِّينَ ببزّاتهم العسكرية وقاماتهم المديدة، كانت تتَخايل لي، عبر قبابها وأشجارها العارية وزرابي الثلج المبْثوثة، طيفاً يُغْري باكتشافَ بقَايا أسرار راسبُّوتين وحفلات القَصْفِ والهَتْكِ التي أثّثتْ ليالي

القياصرة اللاهين في أحضان الروسيات الشقراوات. سأقول لها بأن موسكو هي إيقونة رُسمتْ بأكثر من لون ونغمة وكلمة: أصداء قَصائد بُوشكين ومايكُوفسكي وإسْنين، تُعانقُ حركات سيمْفونيات تشايكوفسكي ورَخْمانينوف، وتُحاذي ملحمة «السَّلام والحرب» وتَساؤلات دستويفسكي القَلِقَة المُمْعِنة في الجَرْيِ وراء الحالات القُصوى.

سأحكي لها (. . .) ويظهر أن النّوم سَرَقَني لأنني عندما صحوتُ في الفجر على صوت المؤذِّن المجلجل عبر الميكروفون، كانت بقايا حلم لاصقةً بجَفْنيّ: كنت أراني وحيداً في شوارع خالية من الناس والقطط والكلاب، ولا تُسمع بين جنباتها سوى فَدْفَدَة صحائفَ قديمة وأكياس بلاستيك تُدَحْرجها الريح على الإسفلَت. أُزرِّرُ معطفي وأجري يميناً وشمالاً. أطرقُ الأبواب بقَبضتي فلا أسمع صوتاً ولا نأمة. أعود لأجري مُرتعباً، صارخاً: أنا هنا. أنا فُلان الفلاني. لماذا لا تردُّون على نداءاتي؟ أنَسيتم اسمي؟ أليس اسمي هو اسمي؟

حاولتُ أن أُعاود النّوم فلم أتمكّن. أضأتُ الأباجورة وأخذت أقرأ مجلةً تضم مقالات متنوعة، إلى حدود السابعة. نزلت للإفطار واشتريت بعض الصحف. على المائدة بدأت أتصفح الجرائد، فوقعت عيناي على مَانْشيتْ يُخبر عن وقوع هجوم على مُهرِّب مخدرات خطير بأحد فنادقَ عين الذياب أسفر عن قتل امرأة كانت معه في الغرفة. وإلى جانب العنوان البارز، صورة القتيلة في

إطار. دققتُ النظر فتبينت الضاوية بوجنتيْها المتلثتيْن وعينيْها المبتسمتيْن. قرأت اسمها تحت الصورة : الضاوية سيلُوحْ. هي لا غيرها. يا اللّه! ما هذه الصدفة التي تأتي في غَيْر أوانهَا؟ شرعتُ في قراءة تفاصيل الواقعة فعلمتُ أن الشرطة كانت ترصد المهرِّب منذ عدة أشهر إلى أن علمتْ بوجوده متنكراً بذلك الفندق ومعه مومس زَعَمَ أنها زوجته. وعند المداهمة أخرج مسدسه وهَدَّدَ بقتل الضاوية إذا لم يسمحوا له بالخروج. وخلال مفاوضته مع الشرطة أطْلَقَ شرطيٌّ النار على المهرِّب ليَشُلَّ حركته فأخطأ الهدف وأصاب الضاوية التي كان الرجل يحتمي بها . . . أنْظُر من جديد إلى صُورتها وإلى اسمها وأتذكر زيارتها لـ : ف. ب وما حكَتْهُ لنا عن مسيو التهامي بلُغَتها الخاصة ودلالها العفوي الجاذب. كيف سأبلغ الخبر إلى ف. بَ؟ بأيّ صيغة وبأي كلمات؟

وخَطَرَ لي أن أتصل هاتفياً بصديقي السعداوي الذي انتقل إلى الدار البيضاء منذ عشرين سنة واستطاع أن ينجح في عالم الصفقات وأن يتغلغل في أحشاء المدينة وأسرارها بفضل علاقاته المتنوعة والسهرات الباذخة التي يُحييها من حين لآخر. كنتُ أُريد أن أستفسره عن هذه الحادثة وعن مُهرِّب المخدرات. ردَّ عليَّ ابنه كمال مُرحِّباً، مُقلِّداً أباه في اللهجة واللُّطف : يوم سعيد هذا أعمي. كَايَنْ شي ما نَقْضيوْ؟ قلتُ له إنني أريد أن أتحدث إلى السعداوي فأجابنَي بأنه مسافر لبضعة أيام، لكنه هو مستعدّ لأن ينوب عنه. وأمام إلحاحه، استفسَرتُه عمَّا إذا كان يعرف شيئاً خاصاً عن المهرِّب

الذي حاصرته الشرطة أمس بأحد فنادق عين الذياب وعن . . . قاطعني في وثوق : قرأتُ ما كتبتْهُ الصحف لكنني أشكُّ في روايتها لأن قَتْل المومس لا يمكن أن يكون مجرد خطأ . وأضاف بأنه يعتقد أن الشرطي متواطؤ ولذلك أطلق النار ليخلق البلبلة ويُتيح للمهرِّب فرصةً للهروب . . . كان يتكلم بوثُوق يَفُوقُ ما يمكن أن تَضْمَنَهُ سنة ثالثة بكلية الحقوق لطالب نجيب مثله!

في صباح الغد ، قصدت إلى ساحة ڤيردانْ . حوَّمتُ حول العمارة قبل أن أصعد إلى معزبة ف . ب . رفعت بصري إلى الطَّابق الرابع فرأيت سيدة تنشر الغطاء على مرفق النافذة . خَمَّنْتُ أنها الخادمة التي حدثتني عنها في المرة السابقة . آثرت أن أبقى على الناصية المقابلة للعمارة بجانب مقهى صغير كان ينبعث منه صوت نجاة عتابو وهي تُغنّي «عَذْبُوك أشيري» . بعد قليل لمحت الخادمة تخرج من العمارة متّجهة صوب البقالة . دنوتُ منها وسألتها عن ف . ب فقالت ببساطة وكأنها تُجيب على سؤال تافه :

«ماتت . ماتتْ مسكينة هادا شي شهر . خُوهَا سيدي فؤاد هو اللي تيسكن في دارها» .

عدت إلى الناصية المُقابلة للعمارة وتأكدتُ أن نافذة غرفتها مشرعة والغطاء والإزار منشوران على حافتها . شعرت بارتجاجة قوية جعلتْ الغَصَّة تتصاعد في حلقي . لكن زمامير السيارات ولَعْلَعَة الأصوات سرعان ما بدّدت الانفعال الذي لَفَّني وأنا أسمع نَبَأَ وفاتها . ظللت أبحلق باتجاه العمارة والنوافذ المفتوحة وأنقل بصري ،

في بلاهة، بين وجوه المارّة. إزاء الموت كل شيء يبدو نافلاً. فكرت في ما خسرتُه : امرأة أكثر صدقاً بل أكثر جاذبية من تلك التي ابْتَدعَتْها المخيلة. كانت مُنغرسة بجذورها في هذا الواقع المنفلت الذي لا أكاد أتَبيَّن معالمه. ثم فكرت بعد قليل، بأنها لا تنتمي إلى هذا الواقع رغم أنها جزء منه. كان لها الشجاعة في أن تَخونَه وهي تعلم أنها ستغوص، جَرَّاءَ ذلك، في متاهات الوحدة والجنون.

وتصوّرتُ أن كل شيء سيعود، داخل أسرتها، كما كان. رَحَلَتْ ف. ب وإلى الأبد هذه المرة. إذْ لا أتَوقَّع أن أراها تخرج من نَصٍّ الرواية إلى واقع الحياة. هي التي كانت من دم ولحم قبل أن ترتاد المخيلة، أنْهتْ رحلتها على الأرض، وجعلتني أقف على هذه النهاية التي لن يُجديَ الخيالُ في بعثها لأستكمل ملامحها ورُدودَ فعلها المتدثِّرة بالهدوء والنَّفاذ إلى بوَاطن الأمور.

ووجدتُني أتصور أنَّ أُسرتها استَأنَفت، بعد شهر من موتها، حياتها المعتادة بعد أن تنفّست الصُّعداء. لم يَعُدْ هناك ما يقلق بال الأب وزوجته التي كانت تتذمَّر من وجود ف. ب «الحمقاء». سيستأنف أعضاءُ العائلة حياتهم اليومية وطقوس المناسبات التي تُميِّز الفاسين عن البيْضَاويين. سيعود الأبُ، مثلاً، إلى سهرات لُعْبة الورق الأُسبوعَية مع أصحابه، لَيُظْهر مهارتَه في «التُّوتي» و«التريسْ»، وسيُجَلْجل صوتُه مُنْتَشياً بانتصاَراته :

«بْواق أمَالي بْواَق. هذا هو اللَّعبْ وإلاَّ فَلا . . . إيوا كيف جيتك أسيدْ العباَس؟».

توجهتُ إلى المقهى المقابل للعمارة. طلبت شاياً وظللت أُبَحْلِقُ في تلك الفراغات التي تَمتلىء قليلاً داخل ذاكرتي ثم تَفْضو. تمتلىء بالتدريج ثم تفضو عبر التذكر : أُريد أن أُحدِّثها عن استفَاقَة المشاعر في دخيلتي عندما كنتُ أتَجوَّل في شوارع باريس يومَي 15 و 17 فبراير من السنة الماضية، ما بين الثانية والخامسة بعد الظهر.

في عز الشتاء، أشْرقَتْ شمسٌ دافئةٌ مُرْتعشَة، وَصفَتْ السماءُ حتى كأن زُرْقَتَها الشفَّافة بللور يكشف عن امَتدادات تَصلُ العُلْويَّ بالأرضي. كنتُ أسير منتشياً وأنا لا أكاد أُصدّق تلك الرّوعة التي سَرْبلت شوارع باريس وحديقة الليكسومبورغ . . . وكنتُ أُطيل النظر إلى الأشجار العارية أغْصانُها عُرْياً مُطلقاً وهي تمتدُّ كأصابع استطالتْ متدثرةً بلَوْنها الداكنَ، كاشفة بين فُرجاتها عن زُرْقة سماوية فاتنة. لم يكن الطَقسَ بارداً ولا دافئاً، وجسدي المتحفِّزَ في خطواته يُحس بنفحات قارصة تَسلَّل إلى المسامّ لتُنعشه أكثر، فأدرك أن هذا الصحو لا يُشبه صَحْوَ الربيع الذي يُحرِّرُ النفس منْ عذَارها ويجعلها تتخايل أطيافَ حُبّ دَاهم . . . أسيرُ مستسلماً لنَشْوةَ شمَس الشتاء التي طردتْ دكنة السماء الرمَادية وأبرزت تضاريس المعمار وواجهاته العتيقة المتلفِّعة بزخارف هندسية من عصور مختلفة. وكلما مررتُ بتمثال للرِّجالات اللاّمعين (رابليه، موليير، مونتيني، بلزاك، دانتون، روسو، هيجو . . .) أحسستُ كأنما استعادوا الأنفاس واندسُّوا في زحمة العابرين.

أسيرُ ولا أتمنى أن تنتهي هذه الإشراقات المفاجئة التي أخرجتني من عتمة الوَسَاوِس والمخاوف المتخيَّلة. لم أعُدْ أُفكّر إلاّ في مُلاحقة هذا

الضـوء ثـم الانغـمـارفي لألائه الذي يُضـفي الرَّوْقَ والطمـأنينة . . .
وعندما بدأ المساء ينشر أرديتَه، بدأتُ أتساءل كيف سأُمْضي الليل في انتظار إشراقات أخرى محتملة .

لعلَّني أمـضيتُ عـدة ساعات على المقهى منجذباً إلى الصور والتذكُّرات تَنْثَالُ على خاطري قبل أنْ تتحول إلى فُضَاضَةَ متناثرة. وعندمـا شـمَلَني هدوءٌ داخلي، توجَّـهت إلى مـحطة القطار لأعـود إلى الرباط .

أمضيتُ عدة أيام أسيراً لطيف ف . ب المتلوِّن الذي أخذ يتسلَّل خلْسةً إلى ما تحت الجلد. غادرتُ ما حولي وأعرضتُ عن عاداتي وَاشـتـهـاءاتي. تَعطَّلت، لفـتـرة، اهتـمـامـاتي. وأحـسـسـتُ حـالةً تتقمَّصُني شَبِيهَ ما أحسه بطلُ فيلمٍ «جناحا اليمامة» المقتَبَس عن رواية لهنري جيمس، وهو يتمتم بَعْدَ موت «ميلي» عبارات بهذا المعنى :

«لم أعُد أُسْتَثار إلاَّ للجسد الذي كان وَرَحَل. إغراءُ الموت لا يقاوَم مثلما أنَّ سـحْرَ الحيـاة لا يُقاوَم، لكنْ قَـبْلَ أن نكتشف فتنةَ الزَّوال والفَوَات . . . ».

وَأنا أستـعـيد هذه العبـارات التي علقتْ بذهني عند مشاهدة الفيلم، رَنَّ في ذاكرتي مُنَبِّهٌ يتصاعد من أعماق الطفولة : مشهد مَـحْـفُـورٌ داخل المسامّ يجعلني أرى نفسي، وأنا دون الرابعة من عُمري، أحبُو نحو المغسل الخشبي لألمس الجسد المسجَّى، المفرط البياض، لزوجة خالي سيد الطَّيِّب. هل حدث ذلك فعلاً؟ الذين عايشوا تلك الفترة لا يؤكدون ما حكيتُه لهم. لكن، من أين لي

هذه الرؤية الواضحة كأن المشهد حدثَ بالأمس؟ ولماذا ذلك الافتتان بـ «ميلي» بطلة «جناحا اليمامة» وبكُلّ الجمال الآيل للأفول والزَّوال؟ لماذا الحرص على معايشة الموت كأنه حضور ممتدّ لما أُوجَدُ فيه؟

في الأيام الأولى من صيف هذه السنة، أحسست ذات مساء، بشَوْق عاصف إلى ف. ب وإلى خُلْوَتها المسعفة على البوح وَالتأمل. عدتُ أُردِّدُ: رَحَلَتْ قبل الأوان. لكنّ شعوراً بنُقصان كبير كان يُعَذِّبني ويضعني في حالة الذين تعوَّدوا على الأفيون أو أشربَة الكحول اليومية. لا أكادُ أستقرُّ في مكاني. مَا أنْ أشْرع في شيَء حتى أتوقَّف لأُعَاودَ التفكير في ف. ب. وفي ذلك المساء قرَّرتُ أن أستحضرها علَى غرار ما يفعله مُحَضِّرُو الأرواح بدُون طقوسهم وتعاويذهم. وضعتُ سوناتات لموزار على البيانَو فيَ الجهاز القارىء واستسلمت لعملية استرجاع تفاصيل اللّقاءيْن. اندمجتُ في التخيُّل والاستحضار إلى أن تراءتْ لِي ملامحُها مُمعنةً في البيوضة بدون أن تبدو عليها ابتسامتها المتكتِّمة. وخيِّل إليَّ، بل سمعتها تقول في نَبْرَة محايدة: هل نسيتني؟

أحيانا كانت دوَّامة الأحداث تأخذني فأنهمك في مشاغل الساعة ورتابة اليومي. وقد تمرُّ بضعة أيام دون أنْ أفكر في ف. ب أوْ أستعيد ملامحها بسُهولة. هل يُعقَل أن يغيب عنّي وجهها بهذه السرعة؟ هل فعلاً جَرَفَني النّسيانُ فغدوت كأنني لم ألتق بها ولم أكلّمها أو بالأحرى، كأنَي لم أنْصت إلى حوارها الذي كنت أ ـدُه دَوْماً صادراً من عالم آخر؟).

ووجدتُني أقول بلوعة: لا يمكن أن أنساك. أنت احتمال له كامل الحضور وله قدرة لا تُقاوم على تغييرَ المسارَ، أقصد مساري. بعد رحيلك أنا في فراغ، بدون نجيَّة تجيد الاستماع.

(وَعَبْرَ عينيَّ المغمضتيْن وأنا مُمعنٌ في متابعة طيْفها، غمرتني صورة امرأة مُركَّبة من تلك التي زرتُهاَ في محبسها ومن ملامح تلك التي نسجتُها عبر التخييل: صورة أخرى انبثقت من حَرْفَيْ ف. ب في الرواية وفي الواقع، متدثرة برداء الغياب والموت الذي يعلن عن ميلاد حياة.).

بعد بُرهة صَمْتها المألوف لديَّ، قالت: أعلم أنكَ على وَشْك أن تُنهيَ كتابة نَصٍّ عَن زيارتيْك لي. هل استَحْصَدْتَ زاداً للْجراب؟

- أنت تنسين أننا ظلاَّن لكيانٍ واحد: منك أستمَدُّ اللغة، وكتابتي تمنحَك الوجودَ.

- ظلاَّن؟ قَرينَان؟ ليس تماماً. أنا غير أنتَ. أنا أُمثِّل في نَظَرك حالةً قُصَوى عجزتَ عن بلوغها، لذلك لم تكفّ عن ملاحقَتي لسَبْر أغواري والنفاذ إلى ما تظنُّه سراً كامناً في رحلتي غير المعتادة بَالنسبَة للأخريات اللاَّئي عرفتَهن.

- لكنني أتطلَّع إلى التمازج بك رغم الفُروق القائمة بيننا في الظاهر.

- أنتَ تحيدُ عن الصراحة التي وَسَمَتْ ضمنياً مُحاوراتنا. فمهما تَقَارَبَ الأفقان لا يمكن أن نتناسى ذلك النشاز الناشئ الذي يُخلخل تصوراتنا وأحلام يقظتنا. أقصد نشاز بَنْ عريش بالنسبة لك، والضاوية بالنسبة لي. صخرتان تتحطم عليهما كل الكلمات

التي تتعالى على الوجه الآخر للواقع. وأحب أن أقول لك بأن قلبي يُخبرني بأن الضَّاوية لم تَمُتْ؛ أنتَ الذي قتلتَها في النص الذي كتبتَه، لأنك أحسستَ أن ما حكيته خال من العنف الذي يطبع جميع العلائق ومجالات الحياة. أنت مقتنع بأن الكتابة هي أيضاً لا يمكن أن تَنْجُوَ من العنف إذْ بدونه يتلاشى المعنى ويغوص النَّص في رتابة السرد والتأمُّل. لكنني لا أرى أن عُنْفَ النصِّ بهذه الطريقة المختزَلة التي لَجأتَ إليها، سيُوازي عنف الواقع.

- ربما لأنني أردتُ أن أُخْرِجَ القارىء من الحياد الذي تُوحيه طريقة سردي لحكاية الضاوية؛ فَهي أيضاً مظلومة لأن...

قاطعتني بحدّة:

- هُمَا معاً، هي وبن عريش يمتلكان عنفاً خاصاً كافياً لأن يكسِّر الرتابة التي تريد أن تتجنَّبَها. هما معاً يُشخِّصان أخلاقاً خارجة عن دائرة التعاليم وفَلَك الموروث. مُجرد وُجود مثل سلوكهما يُقلقُ مَنْ يعتبرون أنفسَهم سدَنَةَ المجتمع الضَامنين استقراره. أنت تعرفهم، بعضهم هُمْ من معارفك الذين يتشبثون بخطابِ الإصلاح وحُرمة القوانين وقُدسية الأعتاب الشريفة...

- لكنني أنا أرى أن المناهضة ضرورية حتى عندما يبدو خطابهم مقنعاً، عقلانياً، لأن السلطة بطبيعتها تَجْنَح إلى تبرير ما هو قائم.

- السلطة هي التَّبرجُز بمعناه السيء. الماسكون بزمامها لهم

تَفْويضٌ بإصلاح أحوال العباد وهم لا يتوفرون على ممارسة مُتنزِّهة عن الغَرَض والشَّطط . . . من ثمَّ ضرورة الطرف المناهض للسلطة حتى لو افترضنا شرعيتها .

قلتُ لها محاولاً أن أُغيِّر مجرى الحوار :

- أنا لا أسعى إلى أكثر منْ أن أعبر عن حالة اهتزاز، حالة انفصام، طموح لم يتمّ امتلأتْ به النفس في عنفوان الشباب . وأظن أن الكثير مِنْ ما أُحاول كتابته مشروط بِمساري وبعلاقتي مع مَنْ حولي . . .

- أنا أغبطك لأنك تَتوارَى خلف الكلمات . تُتْقنُ التَّخَفِّي وراء الشخصيات والمواقف لتُنْطقَها بآرائك، وأحياناً تنتقل من النقيض إلى النقيض . أنت، حَسَب المثل الشعبي، «تَتحنّي مع كل عُرس» . لكنني أنا لم تكن لي إمكانات مثل هذه لأمارس حريتي رغم القيود . تحتَّم عليّ أن أعتزل الناس والدنيا لأُنْقذَ قسطاً ضئيلاً من تلك الحرية التي كنتُ أُعزُّها وأنا على قَيْد الحياةَ .

تذكرتُ المواجهة التي جرت بيني وبين صديقي الأعز عبد الموجود الذي يكبرني ببضع سنوات وقاد خطواتي الأولى على درب المعرفة ومسرّات الحياة . كان ذلك قبل أسبوع . دخل إلى الصالون واسْتلقَى على اللحاف صامتاً . عيناه محاطتان بالزُّرْقَة ووجهه منتفخ بعض الشيء، والنظرات كامدة .

سألني عن اختفائي المتواصل داخل البيت، فأجبت بأنني أُراودُ نصّاً لا يكفُّ عن الزَّوغان . ثم حدثته قليلاً عن امرأة النِّسيان وعَن

قصصها وتجلياتها وَعن اليُتْم الذي أُحسّه منذ رحيلها واصراري على ملاحقتها عبر المخيلة والاستحضار . . . وعندما سألته عن أحواله ، اختنق صوتُه وأحسستُ برغبته في البكاء. عاودتُ النظر إليه بعد قليل ، فوجدت عينيْه مُبحَلقتين لا تَعكسَان سوى الفراغ . خفصتُ بصري وأنا في حيرة من أمره. طَال السكوت وطال انتظاري . عدتُ أُتَمْتم باسمه : عبد الموجود مالك؟ فجأةً صدرتْ عنه ضحكة عصبية مُجلجلة. خَبَط الطّاولة بقوة : هل هذا عدل؟ أنا زوجتي حمقاء تُكسِّر المواعين، تُمزِّق الثياب وتصرخ كالحيوان وتحتاج إلى السلاسل ، وأنتَ تحدثني عن بطلة روايتك التي اختارت هي بنفسها جُنونَها ، لتَنْعَزل عن الناس وتتأمل في بلادتهم من بعيد. هل تعرف أنني أُمضي عدّة ليال بدون أن أذوق طعماً للنَّوم؟ قُل لي ماذا أفعل أيها الروائي المتعقِّب لخطوات امرأة غادرت الحياة؟

– أظنّ أن منْ حقك أنْ تُودعَها مستشفى للأمراض العقلية فالشَّرع إلى جنبكَ وكذلك . . .

– أي شرع وأي مستشفى؟ وماذا أقول للأصهار؟ ماذا يقول ابني لعائلة خطيبته؟ هل يقول لهم إن أمه غدتْ حمقاء ، لأنها لم تَرْضَ أن تُعالج اكتئاباتها العُصابية؟ هل تريدني أن أُحرمه من مصاهرة عائلة لها جاهٌ ومال؟ هو يعلّق كلَّ آماله على هذا الزواج والعلاقات بيننا متوترة من سنوات لأنه يعتقد أنني ضيّعت الوقت في نضال لا يُفيد. لم تعد هناك لغة مشتركة بيني وبَيْنه هو وأخته. أصبَحنا جُزُراً مُتنائية. وهذه الزوجة التي ابتلاني اللّه بها (أوْ بَلاني

بها، لست أدري) لم تستطع أن تَحتمل سنَّ اليأس، ولم تستطع أن تفتح قلبها للأصدقاء والأقرباء. عاشت تبحث دوماً عَمَّنْ تَلْسَعُه بلسانها أو بشرِّها، وأنا الآن في قَبْضة هذا المأزق الذي هَدَّ كياني أنا الذي همْتُ بالحرية واعتقدتُ أن مصيري بين يديّ. أين هو هامش الحرية اَلذي كنتُ أحضُنُك، منذ ثلاثين سنة، على التشبث به؟ ربما يوجد في الروايات التي تقرؤها أو تكتبها. كنتُ أُردّد باستمرار أننا نستطيع أن نقطف النجوم بأصابعنا وأن نتدخَّل لتغيير مَجْرَاها في الأفلاك. لكن، أرجوك، استعرضْ معي شريط حياتي وقل لي أين ومتى كنتُ حراً بالفعل؟ لا أُريد أن أُثقل عليك بالتفاصيل والوقائع. مَلِلْتُ من السرد والمونطاج وتحليَل الأسباب والمسبِّبات. ما يهمّني الآن هو أنني في وَرْطَة: زوجةٌ يستبدُّ بها الاكتئاب فتخرج عن الطَّور وتُحيل حياتي إلى جحيم، وعندما تَفُوتُ أزماتها العُصابية تعود إلى حالتها الطبيعية وكأنها لم تُكَسِّر الماعون ولم تتلفّظ بأعنف العبارات . . . وحماسي تبخَّر فتوقفتُ عن كل نشاط بعد أن اكتشفتُ التهافت على المصالح والمواقع وحتَّى الجماع نسيتُ طَعْمَه من سنوات، مُتحايلاً على جسدي ونفسي لأُقْنِعَهما بأن العيشَ ممكن بدون جنس ولا حب.

أين هو الحب الذي كنتُ أَقْرِنُهُ بالبحث عن أنا أعلى لا يخضع للمواضعات والحسابات؟

نفسي لا تطاوعني على تنفيذ ما تقترحه عليَّ: أن أُرغمها على دخول المستشفى. إنها لا تعتبر نفسها مريضة وعندما أُذكّرها بما

فعلته في لحظات انفجارها تُنكر وتتّهمني بأنني أريد أن «أجْلُوَها» عن البيت.

- مع ذلك، لا مناص من هذه الخطوة، لأنني أخشى عليك أيضاً من معاشرة امرأة بلغت مثل هذه...

- لا أظن أن ما تقوله سيُخلّصني من ورطتي. كيف أصفُ لك مشاعري؟ يُخيَّل إليّ أنني أُشْبه واحداً نَظَرَ إلى الدنيا في مطلع حياته، فتراءتْ له مزدهرة، ريّانة، طُرُقها سالكة إلى قمّة تُشرف على السهول والوِدْيان، فأغمض العينيْن وهَمَزَ المُهْرَ الجامح مندفعاً نحو القمم الخضراء. بعد عقود ومسافات طويلة، فتح عينيْه على حمْحَمَة حصان هَرِم، يتلكأُ عند جدار عال، سميك. أدار عنانَ الحصان ليبحث عن مَنْفَذ آخر، فأدرك لحظتئذ أنه في محبس مُحْكَمِ الأبواب. كيف توغّل في الكمين دون أنْ ينْتبه إلى مخاطره؟ هل كان فعلاً لا يرى أم أنه تظاهر بأنه لا يرى؟

هل لك أن تتخيَّل كيف أُمْضي وقتي منذ عقد من الزمان؟ لا أريد أن أسرد عليك تفاصيل عذاباتي. إنني غَدَوْتُ مثل إنسان آلي تَعطَّلَ جهازه الداخلي فأصبح يَنْطح الجدار السميك المعترض طريقَه دون أن يستطيع تَجَنُّبه. كل صباح ومساء أُمْطِر وَرْطتي بالأسئلة بحثاً عن مخرج، فلا أسمع حتى الصدى.

هل كل الناس مثلي يَنْقَادُونَ للْعَيش ولا ينتبهون إلى الشرنقة التي نَرْتَادُها فيما تنْتصبُ حولنا أَسَوار وحيطانَ، وتُرتكَبُ جرائم

وانْتهاكات نَلْهُو عنها ولا نحرك يداً لإزاحتها؟ فجأةً نبدأ نفتح العينيْن ونتساءل كيف تَخلَّقَ كل هذا الهول المهدِّد لوُجودنا. . . »

عدتُ إلى ملاحقة طيف ف. ب التي غامتْ ملامحها قليلاً أثناء ما كنتُ أسترجع خَطْفاً حواري مع صديقي عبد الموجود. قلتُ لها: لكن ما أقدمت عليه يصعب على الآخرين أن يفعلوا مثله.

- أنا لا أريد أنْ يَقْتَديَ بي أحد.

- لكن الآخرين، أقْصِد الذين ينتمي إليهم بَنْ عريش والضَّاوية، مَنْ يُعَبِّر عنهم؟

- لا أحد يعبر عن أحد. الجميع يجدون طريقهم ليُعْلنوا عن وجودهم بمَا هو عليه. أنسيتَ أن الحقيقة لا يُعَبَّرُ عنها مباشرة ولا تُتَرْجَمُ إلى كلمات؟ أجمل شيء تَهَبُه لنا الكتابةُ هو الإحساس بوجود ما هو حُرٌّ، «خارج التَّسْعيرة»، مُتَمنِّع عن منطق الملكية والانتفاع.

- وأنا؟ أيْنَ موقعي منْ كُلّ هذا؟

- أنت، أيها الكاتبَ، جالس بين مقعديْن: لا تستطيع أن تُعلن انتهاء الماضي ولا أن ترسم معالم مستقبل يَتَخَطَّى ذلك الماضي. لُعبة النسيان لم تَعُدْ تُجدي، ومفعولها في التَّهدئة استَنْفَد مداه. وها أنا امرأة النسيان، راحلة إلى عالم مُتَعال عن دنيا الناس. إلى متى ستَقْوى على ملاحقتي لأُسْعفكَ على النسيان؟».

انقطع الصوت وتبدَّدت الملامحَ، والعينان المغمضتان لم تعودا تَرَيَان على الشاشة الداخلية سوى خطوط ونُقَط مُبعْثَرة.

هل أُسمِّي ف. ب الآن، مسافةَ الموت التي لا تُنهي الحيوات

وإنما تُشير إلى احتمال الاستمرار في شكل آخر؟ نعم الاستمرار، وإلاَّ لماذا في لقاءاتي بها، حيَّةً وبَعْدَ رحيلها، أُحسُّني مضطرباً، قَلقاً، فيما هي مُتدثرةٌ بهُدوء مُزَلْزِل تُفْصح عنه كلماتُها ونظراتُها وَانتماؤُها المتناسق إلى عَالمي الموت والحياة في آن؟

وامتدّ الحوار بيني وبين ف. ب في شكل آخر: أصبحت هي الأفق الذي يكاد يُلْغي ما عَدَاهُ. أستعيد كلماتها، أُقَلِّبُها من كل الأَوْجُه وأعيد تأويلها. أحياناً أتحسَّر على أنهَا لم تُعْطني أوراقاً كتبتْها، غير أنني سرعان ما أُقنع نفسي بأن من حقي وحدَي أن أرثَ كلامها وأن أستعيده، بل وأن أنسج داخله أو على هوَامشه. لا أحد يُمكنه أن يحاسبني، خصوصاً وأنه ما منْ حُدُود يمكن أنَ أخْتطَّها بيني وبين مَنْ كنتُ أحس أنها تعبر عن هواجَسي بدقَّة تَفُوقُ ما أقْدرُ عليه.

لكن شعوراً بالخوف تَنَامَى بأعماقَي وأنا أُنهي كتابةَ هذه الصفحات. خوف من ماذا؟

لم أستطع تبيُّنَ مصدره. إلاَّ أنني بدأت أعزُوه، تدريجاً، إلى ذلك الفزع الذي أصابني وأنا أقيسُ المسافةَ التي تفصلني عن عالمين، أو بالأحرى عن حالتين من الوجود: بتُّ أشعر أنني لا أدرك جيداً مسافة الموت المتوازنة التي كانت ف. ب تُشَخّصها أمامي وكأنها مُنتمية في آن إلى الحياة والموت. ومصدر خوفي أنا، هو تحقُّقي من ثُبوت مسافة بينَ الوجود والعدم لا أستطيع أن أقفز عليها أو أن أُدْمجها في مسافة واحدة كما خُيِّل إليَّ أنَّ ف. ب قد فعلتْ.

في أحيان أخرى، يطغي الشعور بالوحدة على الخوف: وَحْدَة

تعزلني عن كل شيء وتضعني على سكَّة التلاشي والزَّوال. هل هذا هو الجانب المخيف في الموت والذي لم أكن أُخمِّن وَطْأتَه؟ ومن أين لي أن أفتتن بمسافة الموت المتوازنة فيمَا أعماقي تَضجُّ بزغاريد الحياة وبأصداء مَسَرَّتها؟ ثم منْ أين ليَ أن أهرب من تلك الأصداء التي تَرُجُّ الكيان صباح مساء؟

أصداء ترجُّ مُباغتةً في الأعماق. تُذكّرني بمَشاهدَ وفُرجات عشتُها صاخبةً جارفة، مُثيرة ومُغْوية. الآن تَبدو مُتخايلة عبر العلامات، عبر إشارات صادرة، كأنّما، عن مَوْتَى. مَيِّتٌ أنا أم حيّ؟ أجري وراء الكلمات. أستعيد النأمةَ والبَسمة وضوضاء الأصوات. أَلَمْلمُ نُتَفَ الذاكرة. أُداعبُ أُرْجُوانَ العشايا. نكهة الأصباح مُمتزجَة بأسمار الليالي في الأزقَّة والأضْرحة والمغاني: فاس. القاهرة. باريس. طنجة. الرباط. وفضاءات مُدن أخرى خَاصَرْتُها في عُجالة. ما أكثر الوجوه ولحظات النَّشوة. ما أوسع الفضاءات وسط لُبُوسات عديدة. لكن كأنما المحبوبة واحدة حيَّةٌ - ميِّتة تَنأى مُقْتَربة. تَطْفُو على صخب الفُرجة. تَبْدُو غَيْرَ مَنْ عرفتُ؛ رغم ذلك تظلُّ في الأعماق ساكنة. يقول صدى صَوْتها:

«تبحث عن ماذا؟ عن ماضٍ يُوهِمُ أنكَ باقٍ؟ عن ف. ب؟ عن مُونس في وَحْشَة موت بطيء؟».

تتناءى فيمَا هي تقترب. يتحرك وجداني في إثْرها مُتَوَسِّلاً بحَبْل من مسد تَضْفرهُ الكلماتُ، مُلاحقاً الأطْرَاسَ المتوارية، عَلَّهُ يَستعيد ملامح امرأةِ النِّسيان.

تم طبع هذا الكتاب بمطبعة النجاح الجديدة
رقم الإيداع : 2003/0806
أبريل : 2004



في «امرأة النسيان»، تطالعنا شخصية ف.ب. التي خرجت من «لعبة النسيان» لتستقبل الكاتب في محبسها بالدار البيضاء حيث تعيش منذ رجوعها من باريس وهي في حالة من التوحّد والجنون الاختياري... ويبدأ الحوار بين شخصيتين توجدان في موقعين مختلفين :

- امرأة مستسلمة للعزلة، منتظرة للموت
- وكاتب يجري وراء التبدلات والوقائع الطّازجة خلال فترة التناوب والتراضي.

لكن كتابة الذّاكرة التي يتوخّاها هذا النص الجديد لمحمد برادة تحرص على أن تتحرّر من أوهام التاريخ وخداعه، وأن توثّق صلتها بالنسيان حتى تتبيّن علائقها المعقدة بالذات وبالآخر وبالحقيقة الهروب.

وبقدر ما تقترب ف.ب من اللغة المتعالية على الراهن، بقدر ما يتأرجح الكاتب بين الواقعي الجذّاب وبين الأفق الممكن الذي تؤشر عليه الرؤية التنبؤية ل : ف.ب المتمرّدة على إطار التخييل الذي وضعها الكاتب داخله....

صدر للمؤلف: لعبة النسيان، الضوء الهارب، مثل صيف لن يتكرر، ودادية الهمس واللمس.


9 789954 415115



10 DH